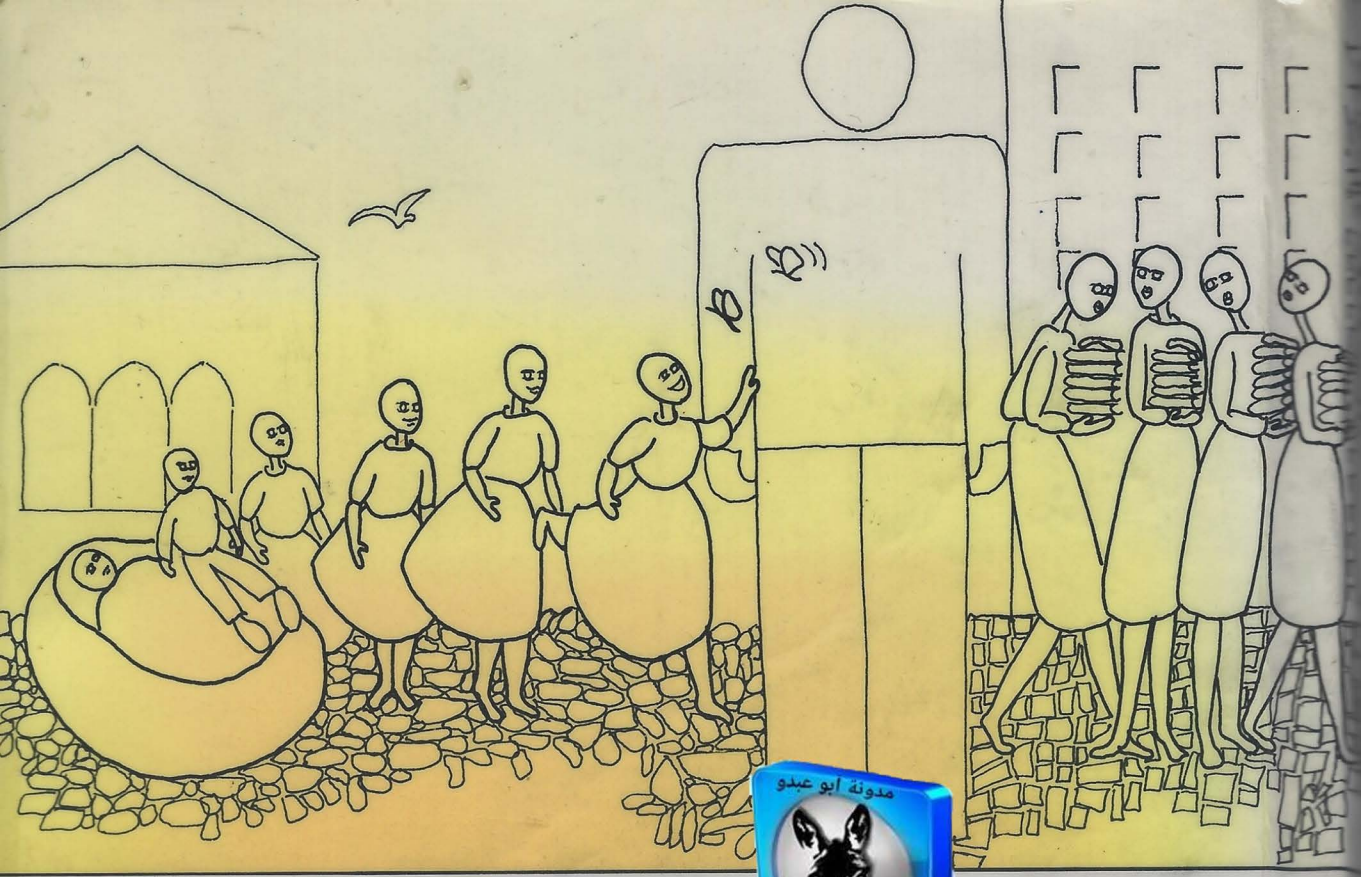

مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

إملي نصرالله

الرّهينة

مؤسسة نوفل

الرهينة

أملي نصر الله

الرهينة

(رواية)

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة والناشر

الطبعة الثالثة
١٩٨٦

© مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل، شارع المقدسي
تلفون ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥١٣٩٦، تلكس ٢٢٢١٠ نوفل
ص.ب ١١/٢١٦١، بيروت، لبنان

تمهيد

في الليل ، عندما تُطبقُ على الكون اجفانُ السكينة ، ويغفو البشر ، وتهدأ الرياح ، وتنوص القناديل في شبابيك المنازل المأهولة .

عندما أُخرج رأسي الى الظلمة ، وأحدّق ،

ولا أعود أبصر سوى تلألؤ النجوم وارتعاش الكواكب ،

آخذ قلمي ، وأبدأ اكتب اليك . وأكتب ولا أعيد قراءة ما كتبت . وتتكدس الاوراق أمامي ، ثم تنهمر على الارض ، مثل اوراق الخريف .

مثل دموع الغيوم الربيعيـــة ،

غزيرة ، نقية ... وتنتشر حولي

وتُغطّي أرض الغرفة ، ولا يبقى هناك موطِىءٌ لقدم .

ويكون الفجر قد بدأ يفتّق رحم الليل ، ليولد من جديد ، فيوقظ النفوس من سباتها ، ويمسّ بأنامله السحرية ، أجفان الاطفال والعصافير .

عندها ، يتوقف قلمي ، وتمضي يـــداي تلملمان الأوراق، وتنشرانها امـــام عينيّ .

وأقرأ ، وأعيد القراءة ، ثم أُمزّق اوراقي وأذرّيها للريح ، لشمس النهار الجديد ، لأعود وأتابع الكتابة في الليلة التالية .

أبو عبدو البغل

وهكذا ، تَراني أيها القريب البعيد ، مثل طفل واقف عند شاطىء البحر الكبير ، يحلم بالرحيل في سفينة عظيمة من صنع يديه ، ويمضي في البناء ، بين الحلم والواقع . وكلما انتهى من صنع قطعة ، وتأَمَّلَها جيّداً ، اكتشف انها ليست سوى قارب من الورق .

وهي ليست سفينةَ حلمه ؛ لذلك يطرحها للموج ، للبحر الكبير ، ليضيّعها في دفق لجّته ، أو في عيون المتجمهرين على الشاطىء ،

ثم يعود الى الحلم ،

الى التصميم ،

الى البنـــاء الجديد ....

الضياع

تكاد لا تسمع سوى خبْط قدميها فوق بلاط الرصيف .

ويرتفع الصدى ، فيمتزج بخفقان القلب ، ويغطّي ضجيج الباعة ، وهدير السيارات ، وصخب المدينة .

تسير وتسير ، متمنية لو كانت لها القــدرة لتبقى هكذا ، دون أيّ هدفٍ او قصد .

يمرّ بها الناس ، وتتركّز نظراتهم على عينيها الزائغتين .

يكاد وجودها كلُّه يتلخص في تينِك العينين . وجسدُها الناحــل ، يلفّه رداءٌ بسيط ، وشعرُها متهدّل فوق الكتفين ، ملعبٌ للنسائم والعواصف.

كان لا بدّ لها من الهرب ، وهي تُبصر السّوْط يرتفع في يده ، وتسمع صوته يزمجر في اذنيها .

هاربة منه ... ولكن عينيها تبحثان عنه بخوف وترقّب . تخشى أن يقفز في وجهها ، من زحام المارة ، فيمسك بيدها ، ويشدّها اليه ، يقبّلها في عرض الشارع متجاهلاً النظرات الفضولية .

عاد سمعها يركّز على خبط قدميهــا .

كلُّ خطوة تسجّل لحظة ، تطويها يده وتضمّها مجلداته الضخمة .

تعيش على حسابه ، منه وله ، وتغتنم فرصتها هذه للهرب والتحرّر الى حين . وهي تشتهي لو تهرب منه الى الأبد ، بقدر ما تشتهيه ، يضمّها اليه ، ويعتصر جسدها بقبضتيه القويتين .

تذكّرت حرصه وغيرته ، وقهقهاته التي تمقتها ، وتحبها في آن واحد . حاولت أن تستجمع فكرها ، وتعودَ الى اللحظات الاولى من وجودها في كنفه ، فخانتها الذاكرة ، وهربت اللحظات كما تهرب الطيور المذعورة .

طالعها مقهى على جانب الرصيف . فكّرت أن تلجأ إليه ، وتذكّرت انها تكره التسكّع فوق الارصفة ، وقتل الوقت في المقاهي . ولكن الامر يختلف اليوم . سوف تختار مقعداً مريحاً في الزاوية ، وتضيع بين الناس ، علّها بذلك تضيّعه .

واذا قادته اليها الصدفة تحتمي منه بالجمهور ، بالموسيقى المندلقة من صندوق النغم . وقد تلتقي في الداخل بسهام ورفاقها ، فتغرق معهم بالثرثرة . وتثرثر بلا انقطاع ، وتبرهن للجميع انها مثلهم تجيد الكلام ، والجدل ، وبحث القضايا المصيرية الهامة ؛ وسوف يرحبون بها ويحبّونها ، وينسون لقباً ألصقوه بها : الطائر الغريب .

ـ رانيه أهلاً بك .

صوت سهام . إنها كعادتها ، زائغة في بحر من الصخب . مندمجة مع الناس لاصقة بهم . خبزها اليومي ، كما تسميهم .

ردّت على الترحيب بتمتمة غير مسموعة ، واسترخت على مقعد ودفعت فوق الطاولة ملفاً يضم رزمة أوراق ؛ وظلّت عيناها تبحثان عن ساعة ترشدها الى الوقت : في أي ساعات النهار هي ؟

وساعتها تعطّلت من زمان . وكانت الساعة هديّته اليها . قَبّلها يومها في جبينها وأحبّها ، وربط الطوق حول معصمها .

سوف تنساه للحظات ، وتضيع في الناس . ولكن اذا دهم المقهى ، وأبصرها ، يجرّها من شعرها ، وينثر خصلاته في أرض المقهى ، يصفعها فوق وجهها ، يحوّل نضارة الخدين إلى أخاديد تثير الشفقة ، ويفرك عينيها بأصابعه ، وربما جرّدها من ثيابها . « عارية جئت الى الوجود ، وعارية سأبقيك ، لاطهّرك من الرياء » .

قفز قلبها هلعاً ، وانتبهت الى أسوار العيون تُحدّق بها ، فكشحت غيوم أفكارها بابتسامة ، وهدّأت روعها بوعد : لن يكتشف مكاني ، لن يعثر عليّ .

ـ رانية ، ماذا جـــرى ؟

كم تثرثر هذه السهام ! ليتها تصمت .

ولكن سهام عادت تخزها بإبَر لسانها :

ـ الفتاة البوهيمية . الدور لا يليق بك .

نظرت رانيه الى صديقتها نظرة ابتهال ترجوها لو تحوّل الحديث في مجرى آخر ، ولا تركّز عليها .

وعادت سهام تزقزق بمرح :

ـ على من تمثّلين ؟ لا تعجبني نظراتك .

(وهو ، هل تعجبه نظراتي ؟ هل هذا ما كان يطمح إليه ، يوم اختارني من بين جميع الفتيات ؟ « أحزانك تزيد الكنوز في خزائني . تذكري هذا »

اختارني للحزن . للصمت والشرُود . وإرادته ، أصبحت طبيعة تتحكّم بي .

(كيف كانت له المقدرة على امتلاكي ، يوم كنت أعتقد اننا أحراراً ولدَتْنا أمهاتنـــا .

ويزداد تراكم الاسى في نفسي ، حين أذكر أن مدى الهرب ، مهما طال ، سوف يظلّ في متناول قبضته .. وتظلّ الأمسيات تختلط بالعشايا والأصباح . والزمن يبحر ويرسو في نقطة واحدة . كلُّ الدقائق تبدأ منـــه وتنتهي عند قدميه .)

اقتربت سهام تجمع رانية في دائرة ساعدها وتتمّم :

ـ أنت معذَّبـــة يا صديقتي العزيزة . بُوحي لي بآلامك ، لأزيلهـــا عنك ، أغسلها كما تغسل رغوة الصابون آثـــار الفحم . تذكّري ، ليس بيننا أسرار . أنت صاحبة هذا القول . من يكون ذلك الآثم الذي آذاك ، وحوّل يقظتك الى شرود ، ودفعـــك الى ولوج المقهى ، أنت عاشقة الزوايا المعتمة ؟؟

يا لسهام الطيبة ! كيف تستطيع أن تفهمها ؟

في بعض الاوقات كانت قريبة منها ، وكان ذلك في الماضي . ولكن الأمر يختلف اليوم . وعلاقتها به ، ليست سرّاً حرّم عليها البوح به ، إنما هي ضرب من المستحيلات . هي نفسها تعجز عن تسميتها بالكلام . فتبقيها في عالم ضبابي ، محاطة بحواجز أثيرية ، بعيدة عن ملامسة التراب . وماذا تقول لها ؟ تحدّثها عن اللاشيء الذي يلاحقها ؟ عن المجهول ؟ أم تخترع لها حكايـــة تسلّي ، وتكذب عليها ؟.

ـ ناوليني سيجارة ، يا سهام .

– تدخنين ؟ أعجوبة . صحيح ، نحن في عصر الغرائب . أنا خارجة الى الشارع لأتأكّد أن الكون ما يزال على حاله .

– هاتي سيجارة واصمتي . أنا بحاجة الى أعجوبة تنقذني من نفسي ، من هواجسي ، من كل شيء .

ألم يسبق لك ان مررت بمثل هذا الشعور ؟ هكذا ، فجأة ، ينتشر الضباب في أجواء نفسك ، فيطمس أفراحك ، ويحجب عنك الرؤية ، ويقيم ستاراً بينك وبينك ؟ ويحيلك الى علامة استفهام ، الى لا شيء ؛ فتمضين في الوجود ، فاقدة كل حسّ ووعي ، مضيّعة أهدافك ، ناسية منبعك ، شاردة ، ذاهلة في شرودك ، مخدّرة ، تقفزين كالكرة قذفتها لبطة عابث ، فراحت تكرّ ، وتكرّ دون غاية ؟

إسمعي ، ألم يحصل لك أن مررت بهذا الشعور اللامحمول ، اللامعقول ، فإذا بك معلّقة في الفضاء ، بخيط أوهى من خيوط العنكبوت ، وتحتك واد من الافاعي ، والضباع ، والصخور ، وأنت تخشين السقوط ، وتتلفّتين حولك ، تصرخين ، تطلبين النجدة ، فيتردد صدى صرخاتك في الفراغ ، ويعود اليك ليصفعك بين عينيك ؛ ويعود ليقول لك : ليس هناك من يسمع ... واصرخي حتى نهاية الدهر ! ...

إسمعي ، الم يحصل لك أن زلقت قدمك ، على شاطىء رمال متحركة ، فرحت تغرقين ، وتلفّتّ تطلبين المنقذ ، فاذا الجوّ مربدّ ، والغيوم تحجب الرؤية ، وحرس الشاطىء منهمكون مع الناس في حفلة راقصة عند حدود الموج ؟..

ماذا أقول لك ؟ ماذا تودين ان تسمعي ؟

أجل ، اعرف جوابك ؛ سوف تحاولين إقناعي بأن هناك دائماً يداً خفية ؛ جداراً ، نستند اليه ؛ قدرة نعجز عن تحديدها ، وهي دائماً حاضرة لمساعدتنا ، حالما نطلب ذلك .

ولكننا نصل ، في أوقات ، الى العجز عن الطلب ، عن الصراخ ، ونمضي في دوامة الخدر ، والانزلاق ، والابتعاد والضياع . وهذه حالي اليـــوم .

فما هو علاجك أيتها الفيلسوفة ؟؟.

(اصمتي ، اصمتي أيّتها الغبية . حتى سهام بدأت تشكّ في اتّزانك . بدأت تضجر منك . وها نظراتها تتحول عنك ، لتبحث عن الاصدقاء الذين تفرّقوا ينشدون السلوى مع فنجان القهوة .

(إحملي أوراقك ، وانصرفي ، تابعي تشرّدك ، فوق الأرصفة ؛ ولا تعودي إلى الكـــلام .

(أنظري الى السعداء ، إنهم يضحكون . فقاقيع ضحكاتهم تملأ الجو ، وتنطفىء في عينيك . وربما أنت موضوع تندّرهم ؟

(أديري الاسطوانة على نغم مرح ، فيصبح بين يديك جواز المرور الى عالمهم ، وكفاك هذراً .

(لماذا تختارين سهام لتسكبي في نفسها سموماً لقّح بها وجودك ؟.

(باسم الصداقة ؟ وقتها ثمين يا غالية . وهي مستعدة لتبصر منك وجهاً واحداً . أما الصورة الباطنية ، فاحفظيها له . أعيديها اليـــه اذا شئت . اذا استطعت . واخرجي لتتابعي هربك منه ، أو رجوعك إليه .)

هزتها يـــد سهام :

– تعالي نخرج الى الشارع ، لنضيع في الزحام . أخشى ان تقودك أفكارك إلى مكروه . أو اذا شئتِ ان نسمي الاشياء ، فأقول لك : الى الجنون . مثل هـــذا هذيان محموم ، أو هذر فاقد الوعي .

وأنا اعرفك بعيدة عن السخف ، رصينة ، واعية .

وأعرفك فتاة مثالية ، ونظامية من درجة ممتازة ، وتتحلّين بقسط وافر من المـــرح .

(وتعرفينني فتاة طبيعية ، غادرت قريتها في سبيل البحث عن هوية بين سكان المدينة ، فتعكّزت على العلم ، والمجتمع ، والصداقات . وظلّ الصدى العنيف يهزّ جذورها . وتلك الجذور ، مغروسة فوق أسفلت الارصفة . والمدينة لا توفّر تربة خصبة تجذّر فيها أشجار السنديان .

(والهويّة التي اكتسبتها مزوّرة ، سطحية ، وظلّت هويّته ، تحتجز شخصي ، وتكبّل ساعديّ ، وتقيد حركاتي .

(والذي تعرفينه ياسهام ليس سوى قشرة سطحية ، مثل أديم الارض الخارجية . أما ما تُخفيه تلك الكرة في باطنها من براكين ، وثورات ، فيبقى للخاصة جداً ، للذين نذروا أنفسهم للغور في باطن الاشياء ، لعلماء الجيولوجيا النفسية .)

– ماذا قلتِ يا سهام ، نخرج الى الشارع ؟ هلمّي ....

ابتلعتهما زحمة المدينة .

سارتا بين الناس ، مجهولتين في جملة ما تضمّ من مجهولين . كرتين آدميتن تسعيان في جدب الصحراء ، متعلّقتين بسراب وهم كبير .

وسار بقربهما ظلّ صمت ثقيل ، مشحون بالتساؤلات ، حاولت سهام أن تخرقه بدندنة لحن شعبي ، وظلّت رانيه تخبّ فوق الرصيف ، وكأنها تمشي في المنـــام .

وفجأة ، توقفت ، تقطع حبل الصمت :

ــ الى أين تذهبين بي ؟

ردّت سهام بلا مبالاة :

ــ الى حيث تقودنا الرياح .

ثم اضافت وهي تنظر الى سحابة سوداء تزحف من الأفق الغربي :

ــ المطر قريب ، وعلينا الا نطيل المشوار .

ردّت رانيه من عالمها البعيد :

ــ ألا تخافين يا سهام ؟ مجرّد سؤال أطرحه لنتسلّى . الا تخشين مطاردة احـــد ؟

ــ ماذا تقصدين ؟ إنك مملوءة بالغموض يا عزيزتي . كلّ عاقل يخاف . ولكن اذا خرج الخوف عن نطاق المعقول ، يصبح خطراً ، لوناً من الجنون ؛ وأرجو ألاّ تصلي الى ذلك الحد .

ــ لم تفهمي ما أقصد . ألا تحسّين بمطاردة شبح مجهول ، يُنَغِّص عليك الحياة ، يُحيل وجودك الى جحيم ؟

ــ تتحدثين عن الموت ، رعب كلّ حيّ . ما زال الوقت باكراً ، وانت في ريعان شبابك . أبعدي هذه الافكار ، جمّديها على الأقل ، احبسيها في قمقـــم .

– أو في ورقة ، وتصبح ثقلاً ، جبلاً من فولاذ . وهذا ما حاولت ان افعله . وهذا ما يضمه هذا الملف الصغير . ولكني لا أقصد الموت . الانسان الشجاع يواجهه بصمت . المؤمن ، يترقّبه بشوق . وخوفي مصدره شبح يرتدي ألف قناع ، يلتصق بجلدي ، ويقتات من دمي .

وخوفي مغروس في نفسي منذ ولدت ، وكان هو زارعاً ماهراً ، وكنت عاجزة عن الاحتجاج ، وهو قوي ، جبّار ، لا يجرؤ أحد ان يخرج على طاعته . وصرت لعبته المفضلة ، سلواه ، وربيبته المدلّلة . وعشت في عالمي المزيّف سنوات ولما استفقت من حلمي الجميل ، كان الوقت قد مضى ، ولم يعد بمقدوري المقاومة . ولم أستطع ان أرضخ الرضوخ كلّه . وفي هذا اساس تعاستي .

وهربت

كان هربي في بادىء الامر ، واضحاً . قلت أبتعد عنه ، واستريح . وفي ليلة ظلماء خرجت ؛ همت على وجهي في الحقول والبراري ، نمت في العراء ، وتعرضت لشتّى ضروب الألم ، وكانت رغبة التحدي تبدد آلامي ، وتوهمني بأن الخلاص قريب .

ولما وصلت إلى هذه المدينة ، بدّلت اسمي ، وارتديت ثياب أهلها ، وتقنّعت بواحد من أقنعتهم . وفرحت كثيراً ، مثل فرح طفل ينعتق من ساعدي امه ، وينطلق باحثاً عن سبيله حرّاً ، جذلاً ؛ والطفل يجهل ، ان الساعدين تطوّقانه طوال أيام حياته . ولا يعلم ، إلاّ في مرحلة متأخّرة ، ان الرحم الذي أطلقه الى الوجود ، يظلّ يشتاقه ، ويسعى ليعيده إليه ؛ وأن الدفء ، الذي عرفه ، والأمن ، وحتى الشكل الذي كان له في سجنه المكوّن من اللحم والدم ، يُقَوْلِبُ حركاته ، ويكبّل إرادته .

وظننتني قويّة ، حرّة مثل ذلك الطفل الغـرّ ، واذا بي أستفيق ذات صباح على طَرَقات تكاد تحطّم باب غرفتي .

لم أجرؤ أن أفتح الباب ، كانت قبضته تطرق جدران قلبي . علمت انه اكتشف مكاني ، وجاء يسترجعني اليه ، ويفرض عليّ الطاعة . وفي أقل من لحظة انهارت قصور بنيتها في الاحلام . هربتِ الفراشات الملوّنة التي تسليت بها عني وعنه ... انحسر القناع ، واذا بي أبصر نفسي في عريها ، كما شاءها هو ، حائرة ، قلقة ، رهينة سجن مظلم ، وعبثاً تحاول الافلات من قيودها .

قطعت عليها سهام حبل تفكيرها :

– وفتحتِ البـــاب ؟

– لا . وكان الفجر ينثر خيوطه فوق المساكن الغافية . والصمت يجلل الوجود . وكانت طرقات قبضته تطنّ وسط الهدوء ، عنيفة ، مملوءة بالثقة . وكنت وحدي أسمعها . لم يستيقظ النائمون . ظلوا يسبحون في أحلام الصباح . ولم يشأ هو ان يدخل . كان ينبّهني الى وجوده فقط . وهذه عادته .

هكذا أصبح في الآونة الاخيرة بعدما اطمأنّ الى استعبادي وامتلاكي .

صار يطلّ من حين الى آخر ، وفي اوقات غير منتظرة ، ليثبت لي وجوده .

هل تدركين معنى هذا ؟.. أن تعيشي عمرَك مطاردة ؟ ان تبقى رعدة القلق تهزّ أعصابك ، وتعبث بك ، وتحوّلك الى ورقة خريف ، تتلاعب بها عاصفة هوجـــاء ؟.

انتبهت سهام الى انسياقها بلا وعي مع أفكار رانية ، في تيه من الألغاز والرموز ، فحاولت ان تنتشلها ولعبدها الى الواقع ، وتفهم من تقصد بهذيانها :

– قلتِ طرق بابك مع الفجر ، من هو ؟ أوَيكون عاشقاً مولعاً بك ؟ تجعلينني أعتقد أن مطارِدَك ليس بشراً ، بل نوعاً من الجنّ المنقرض .

– هو مزيج من الاثنين معاً . إنه انس ، له طاقة الجنّ ، وأنا بَشَرٌ ، فتاة ضعيفة محدودة القدرة ، عاجزة عن التحكم بمصيري .

وهو أكثر من عشيق، ويتّخذ هذه الصفة وسيلة لاستعبادي؛ إذا شئتِ أن تتعرّفي إليه ، فخذي أوراقي هذه ؛ حملتها إليك ... إقرأيها، أو مزّقيها . اذا شئت . هي ثمرة ساعات الألم والقلق ، تحوي اعترافاتِ إنسانة شرّدتها الحياة ، وحطّمتها الغربة ، وعصرها القلق ، ونهش الرعب عينيها . احتفظتُ بها مدة طويلة ، قاومتُ كثيراً اغراء المشاركة . فلم يزدني ذلك إلاّ بؤساً .

أخرجت رانية من الملف ، كومة أوراق غريبة ، من كلّ حجم ولون . أوراق تحمل حروفاً وكلمات . بعضها كُتب بعناية وترتيب ، والبعض الآخر ، مُوزَّع على الهوامش ، بين السطور أو على غلافات الدفاتر .

تسلّمت سهام الرزمة ، بكثير من العناية ، وكأنها تلمس سلكاً مكهرباً . تخشى أن تصعقها طاقته . ثم ابتسمت بتكلّف وهي تتمتم :

– أرجو أن يُريحَك ذلك . وشكراً لثقتك بي . ولكن ، الى أين تمضي الآن ؟

– صحيح، الى إين؟ باتت الارض على رحبها لا تسعني . أستودعك اللّه .

وقفزتْ رانية بخفّةِ القطّة الى الرصيف الثاني ، ثم تابعتِ السير ، دون أن تلتفت الى الوراء . وبقيت سهام مسمّرة على طرف الرصيف الآخر ، تلاحقها بنظرات مشدوهة ، وقد شعرت فجأة بأنّ الثقل كلّه بجثم فوق كتفيها ،

وبين يديها . تساءلت ما الذي يشدُّها الى رانية ؟ ولماذا اختارتها لحمل تلك الأمانة ، وإيداع اسرارها ؟

وأحسّت بفورةٍ عارمة من العاطفة تجيشُ في صدرِها ؛ تُعيدها الى أيام الجامعة ، وتطفرُ مع دمعات حرّى تساقطت من عينيها ، وامتزجت بالدموع الأولى تذرفها السماء ، فوق المدينة . فاستوقفت عربة « سرفيس » ومضت الى مكتبهـــا .

الوجه والمرآة

كان بانتظارها كثير من الأعمال المُلِحَّة ، لكنّ سهام لم تقوَ على مفارقة رزمة الأوراق ، وإخماد نار اشتياقها لفكّ رموزها وألغازها . كانت تكتب عن الغرباء ، عن القضايا الخارجية ، وجماعـــة لا تعرف عنهم سوى الصفحة الخارجية لوجهٍ واحد . أما الآن ، فالمجال يفتح لها ، لسبر أغوار نفس بشرية ، عايشتها عن كثب ، وفرحت لفرحها ، وتألّمت لآلامها .

تُرى ، هل تمدّها الأوراق بمادة غنية للكتابة ؟

وخجلت كثيراً لدى مرور هذه الخاطرة ببالها . تستغلّ رانية ؟ تحوّلها الى مادّة ؟ الى شيء تداعبه على صفحات المجلة ؟

ورانية استودعتها أغلى ما عندها ، خلاصة حياتها ... ماضيها .

أم أن خيالها يستبق الحقائق ؟ ولماذا تخمّن ، فلا تُقفل الباب ، وتنزوي مع صدى الماضي المسجّل في كلمات؟ ..

▫ ▫ ▫

« سهام ، يا عزيزتي :

رأيت ان أضع هذه الكلمة ، خاتمة لمفكّرتي . أوجّهها اليك ، توصية مني بأغلى ما أملك .

لم يكن لي في حياتي شيء من المقتنيات الأرضية . كذلك لم استطع ان أجمع كنزاً من نوع آخر ، يحظى به البعض عبر صداقات عميقة أو عابرة ، يعقدونها مع أبناء البشر .

نشأت بعيدة عن الناس . في كنف كهل جعل كيانه أسواراً يحيط بي ، ويحجب عني أسرار الوجود ، والاتصال بكل ما هو حيّ . ربّاني ذلك الانسان في أنبوب زجاجي ، في مختبره (قرأت مؤخّراً ان العلماء يسعون الى خلق أمثالي) ولكن مدبّر شؤوني لم يلدني ؛ جئت العالم مثل سائر خلق الله ، والمشكلة وقعت منذ انفصالي عن الحبل السرّي الذي ربطني بأمي .

اذا بدت كلماتي غامضة ، فسوف تُوضحها أوراقي هذه .

يوم بدأتُ كتابتها لم أكن قد لقيتك ، ولم أحلم بأنّ الصدف ستقودني الى صداقتك ، أنت الصحافية والكاتبة المرموقة . والآن أشعر بالسعادة ، لان الأيام جمعتنا ، ولأن صداقتك كانت خير حافز لي على جمع ذكريـــاتي .

ويوم كتبتُها ، لم أكن أحلم بنشرها ، أو بإخراجها من ملفّها السرّي . والآن بدّلت رأيي . صرت أؤمن بأهمية الاعتراف ، تلك البدعة العظيمة ، التي تغسل النفوس ، وتجفّف عفونتها . ولكن بقدر ما يحسّ المعـــترِف بالراحة ، يشعر بوخز الضمير . ذلك أن حشد الأسرار في النفس ، مثل الإحتفاظ بالخميرة في قلب العجين .

تردّدتُ كثيراً قبل ان أسحب خميرةَ وجودي ، وأطرحها بين يديك ؛ ولكني وصلت الى مرحلة لم أعد أستطيع معها ان أحمل العبءَ كلَّه . وبحثت عن الشريك ، فلم أجد أوفى منك .

يا سهام الطيبة ! قد تحفّزك غرابة القصة على نشرها في مجلتك . إفعلي ما شئت . فهي لم تعد ملكاً لي . وصداها ، مهما ارتفع ، لن يصلني بعدَ اليـــوم . »

توقّفت سهام عند خاتمة الرسالة وتمتمت :

ـ إذن كان كل شيء معدّاً سلفاً . ولم يكن مرور رانية بي محض صدفة .

ثم انتقلت الى المجموعة الاولى من الاوراق :

« صوت المرأة ينطلق مستجيراً . لا يوفّر العذراء ، والقديسين ، ومار جرجس شفيع قريتنا . النساء من حولها في وجوم . القابلة وحدها تتمنطق بالثقة : يا بنتي تصبّري ، شدّي شوي .

الرجل في الغرفة المجاورة ، يذرع الارض ، والقلق ينهش شفتيه ، واستغاثة المرأة تسحق عظامه . ما هكذا تكون ثمرة الحب واللّذّة .

على قيد ذراعين منه ، يجلس رجل مهيب ، يهدىء قلقه ويدعوه الى الاتكال على الله .

ويعود صدى الصرخات ينخر عظامه ، ويطنّ في اذنيه . فيردّد صلاة قصيرة مستعجلة لا تصل حدود الشفتين .

وفجأة يعلو صراخ آخر : ولد للانسانية مخلوق جديد .

تطلّ القابلة من شق الباب ، وتجرض بريقها قبل أن تزفّ أخبار السلامة وتهمس الاصطلاح التقليدي : ولدت « توها » . الحمد لله على سلامة امها .

الرجل المهيب يقترب من والد « توها » فيربّت كتفه ويقبل جبينه . وتنسحب النساء بصمت .

ـ ندعوها رانية ... رانية الحيّ ، اسم جميل .

هزّ الاب رأسه موافقاً ... فتابع الرجل :

ـ وغداً نمضي الى المحكمة لنطوّب الأملاك باسمها : البيت والمزرعة ، وكروم « الدوّار » .

– ليكن ما تشاء .

– وتعيش في رعايتكما بدلال ... تعدّانها خير اعداد لتصبح زوجة « نمرود الخالد » .

– لتحلّ عليك بركة الله ، يا بك .

مع العبارة الأخيرة ، أحنى الأب رأسه بخضوع يقرب من التعبّد ، معترفاً بما لنمرود من فضل عليه وعلى زوجته والمولودة الجديدة .

* * *

« كان نمرود يزورنا كل يوم . بل كل لحظة .

لا أذكر اني نظرت الى شروق الشمس أو غروبها الا بحضوره . كيف كان وقته يتّسع لذلك ؟ لم أفكر بهذه الامور . كنت صغيرة ، وكان وجوده يريحني ، بقدر ما يقلقني غيابه ، ورؤية مقعده الخالي . وحين يغادرنا ، كان يتذرّع بأشغال تنتظره ....

وكنت أقترب من امي ، في ساعات الرضى أسألها بسذاجة :

– عمّو نمرود ، شو بْيَقْرَبْنا يا ماما ؟

فتبتسم لي بغموض ، تلك الابتسامة التي ترفع جداراً بين الصغار وما يدور في دنيا الكبار ، ثم تطمئنني وهي تضمّني الى حضنها وترشق أبي بنظرات تنقل إليه معاني لا افقهها :

– عمّو نمرود ، من عظام الرقبة يا حبيبتي .

وينمو صراع بين جهلي ، وضآلة خبرتي ، وبين كبريائي ، فلا أعود الى طرح السؤال كيلا أعترف بالغباء .

كان والداي يستقبلانه بالحبور والمرح ، ولم أجد سبباً لاتّباع مسلك مخالف ، وصرتُ انتظر زياراته كما أترقب بزوغَ الفجر .

أراه الآن ، وفي كلّ لحظة ، وهو متّجهٌ إلى دارنا . وكان بيتنا عند طرف القرية ، فوق تل أخضر ، وكنت أقف كلّ صباح ، أمام النافذة المطلّة على الطريق التصاعدي ، أرقبه ، فيطلّ .

لم يخيّب مرّة أملي .

تَهبُّ العواصف في الشتاء ، وتتحوّل الأرض الى بحيرة ترشقها السماء بوابلها ، وتُنكّس أشجار الزيتون هاماتها تحت ثقل الثلوج ، وترتدي الغيوم وشاحها الأسود ، وتقترب من بيتنا ، تزحف على زجاج النوافذ والشرفات ، وأبقى خلف النافذة أنتظره . بل إن زياراته في تلك الأوقات التي تفرض العزلة على القرويين ، كانت تنقل مرح الربيع الى أسرتنا .

كنت أرقبه بصمت ، وهو يصعد في الطريق الوعرة ، متحدّياً عناصر الطبيعـــة .

كم أحببت مشيته الأبية وقوامه الأنيق !

كان يسير متنقّلاً فوق الحجارة الناتئة ، مخافة أن يلوّث حذاءه اللماع ،

أو معطفه الشتائي الذي يبدو فيـــه مثل فرسان الأساطير ، فأهرع لافتح له الباب ، ثم أقفز الى حضنه ، وأتعمشق فوق كتفيه ، ليتسنّى لي الوصول الى جبينه ، وأقبّله ، أو أمدّ يديّ الصغيرتين الى جيوب المعطف ، أبحث فيها عن المفاجآت التي عوّدني ترقّبها .

كان فرحه بي يغمرني ، وعطفه يدفّىء عظامي ، خاصة في جلســـاتنا

الحميمة حول الموقد ؛ حين كان يسمح لي بمداعبة شعرات ذقنه ، وتمريغ أصابعي فوق عينيه . وكان ذلك يعجبه ، ويضحكه طويلاً ، ويستفيق من غيبوبة القهقهات ليسألني :

ـ مبسوطة اليوم يا عمّو ؟

كيف أصف أناقة الكلمات ، ومخارج الحروف ؟ كانت غير ما اعتادت أذناي سماعه من ألفاظ خشنة يتلفّظ بها فتية القرية .

وحين يودّع الشتاء قريتنا ، ويُطلّ الربيع ؛ تصبحُ النافذة موقعي الدائم ؛ منها ارقب قدومه ، وشعاعات الشمس تنساب شلالات ذهبية تقبّل أرضنا وتداعب رؤوس الأعشاب الطريئة .

وكان يحملني ، ويقفز فوق الخضرة أو يتركني مغروسة في طرف الحقل، ليجمع لي باقـــات الزهر ، يزيّن بهـــا سواد شعري ، أو يعلّمني أسماءها وخصائصها ، أو يفتح عينيّ على جمال الزرقة في الفضاء ، وتجاعيد الغيوم، وانبساط السهول .

وبعدما نسكر من رحيق الزهر ، ويخدّر التعب أقدامنا ، نعود الى البيت ، ونحن نلهث فرحَين .

كان أبي يطلب اليّ في بعض الأحيان الخروج الى الساحة ، واللعب مع لداتي الصغار ، ليتسنّى له التحدث الى نمرود بلغة لم اكن افهمها .

وكان صعباً عليّ التخلص من سحر نمرود ، فأعود الى الباب ، وأقف امامه ، أسترق السمع الى كلامهما بقلق .

وفي أصباح الصيف الدافئة ، كان نمرود يسبقني الى النهوض ؛ يطلّ

مع الشمس من النافذة ويمدّ يده الى سريري ، يشدني بخصلات شعري ، ويدعوني لأرافقه إلى كروم العنب والتين .

وأقفز مجنونة فرحاً ، وأمضي معه ، ناسية آثار النوم فوق عينيّ .

كان يحملني على كتفه ، والسلّة الفارغة تتدلّى من يده وهو يردّد :

ــ لا يجوز أن تُتعبي قدميك الصغيرتين .

وأُمطِرُه بأسئلتي .

كنت أحبه يردد كلمة : « عمّو » تسميته لي . كان وقعها مثل أجراس الفرح . فأقلّده بترديدها : « عمّو ، لمن هذا الكرم ، عمّو ، لماذا لم تحلق ذقنك اليوم ؟.. شعراتك تخزني كالإبر » .

وكانت أناملي تنزلق أحياناً الى فُتحة قميصه ، فتمضي في العبث بالشعرات المُطلة عند أسفل العنق ، كأذناب الافاعي :

ــ ليش عندك شعر على صدرك يا عمّو ؟...

وتطرق أذني ضحكته الصافية .ويشبع نهمي بكلامه العذب .كان يحلو لي أن ارشقه بحبّات العنب . ولكم فرفطت حبّات العناقيد الدانية ، وتركتها معلّقة فوق صدور أمهاتها . ولم تكن تعجبه هذه العملية فيشدّني من شعري بين الجدّ والدعابة :

ــ ما هكذا يُقطف العنب يا صغيرتي . هذه طريقة بنات آوى !

ويتناول عنقوداً ذهبياً ، ثم يجلس فوق صخرة ، يتأمّلني ، أو ينقّل بصره بين الكروم وهو يهرس الحبّات الحلوة .

في الخريف ، كان يترك رأسه حاسراً . فتعبث العواصف بشعره . ولم يكن ذلك ليمنعه عن دعوتي الى الخروج برفقته ، الى البساتين ، حيث نجمع

الاوراق الحمراء والصفراء ، أوراقاً تساقطت عن أمهاتها وعادت الى حضن الارض . وكان يعلمني كيف أشنّف أذني بخشخشة الأوراق ، لدى مرورنا فوقهـــا .

كان يخلع حذاءه (تلك كانت الأوقات النادرة ، التي رأيته فيها يتخلّى عن شيء من اناقته) ويدوس الأوراق المنهوكة ، ويده ممسكة بيدي ، وصوتي ينطلق عابثاً ، وإبر الاوراق تدغدغ باطن قدمي .

أفهم الآن، سرّ طربه ورقصه كالدرويش، فوق أوراق مغلوبة على أمرها.

كان همّه أن يستعجل عودتها الى الثرى . »

شعرت سهام بدوار يلف رأسها ، وهي تطوي هذا الفصل من أوراق رانية . غرزت ظفراً في باطن كفها ، لتتأكد أنها ليست في حلم .

كيف تبتكر رانية ذلك الكلام كلّه ؟ وقصّتها ، أهي من بدع الخيال ؟ إن خيالها خصبٌ ، على أيّ حال !...

حسبتها باحت لها بكل شيء خلال لقاءاتهما المتكرّرة ، أيام الدراسة الجامعية ، وسنوات الصداقة . فاذا هي الآن ، أمام باب جديد ، تشرعه تلك الكلمات الغريبة ، المتنافرة ، المتباعدة .

تذكّرت أوّل لقاء بينهما ، قبل سبع سنوات .

كان اليوم الاول لهما في الجامعة . أبصرت رانيـــة جالسة فوق مقعد حجري ، تحت إحدى شجرات الشربين ، شاردةَ النظرات . بدت وكأنّها تُلاحق الأمواج المتكسرة على أطراف الشاطىء .

وكانت رانية تحمل قلماً ودفتراً صغيراً ، تسجّل عليه كلمات . توقفت حين سمعت وطء قدمين ، ثم التفتت اليها وفي عينيها بقايا دموع ، تجاهلتها سهام وهي تسألها :

ـ طالبة جديدة ، أليس كذلك ؟

ـ أجـــل .

ـ وانا ايضاً ... أقدّم لك نفسي : سهام مجهول .

– رانيـــه الحيّ .

اقتربت سهام بحذر ، وأخذت مكانها قرب رانيه ، وقد أحسّت بحضور غريب يجمّد الكلمات فوق لسانها ، وحلّت رانيه العقدة بسؤالها :

– من سكان بـــيروت ؟

– أجل . ولا أذكر اني غادرت هذه المدينة إلاّ خلال أشهر الصيف . من عادتنا الصعود الى الجبل ، وأنا أمقت هذه العادة ، وأفضّل البقاء قرب البحر ، ألا توافقين ؟

– لم أتعرّف الى بحركم ، ولم أوجّه مثل هذا السؤال إلى نفسي . أصلي جبلية ، ويمكن أن تقولي صحراوية .

– إذن ، تضايقك الحياة هنا ؟

– أحاول أن أتكيّف حسب البيئة . بالطبع هناك مقاييس كثيرة غريبة عليّ ، وأسلوب العيش هنا ، مختلف ؛ ولكني احب أن أضيع في هذه المدينة . ومن أجل ذلك قصدتها . إنها تعكس تناقضات شخصيتي .

– تتحدّثين بعمق ، من أيّ معهد تخرجت ؟

– معهد القرية ، والطبيعة الجبلية .

– وقبلوك في الجامعـــة ؟

– أجل . بعد اجتياز امتحان تقليدي .

– وتقيمين في القسم الداخلي ؟

– لا . في معهد ثانوي ، رضيتْ مديرته أن تُؤويني ، لقاء التدريس بضع

ساعات في الأسبوع .

– تساعدين نفسك ، أغبطك على ذلك . كنتُ أتوق الى مثل هذه الفرصة ، لأستمتع بشيء من الاستقلال الذاتي ، ولكنّ أهلي لا يوافقون .

– لا داعي للغبطة يا صديقتي . هي واحدة من الصّدَف الكثيرة التي تواجهنا . فأنا لم أختَرْ أهلي . وهم لم يختاروني . ونحن لم نختر القرية ، مفضّلينها على العاصمة ؛ إرادة غريبة غامضة ، غرستْنا في ذلك المكان ، كما اختارت أن تغرس سوانا في الصين ، والهند !...

– إنك فتاة عجيبة . أحدثك عن أمور بديهية سطحية ، فتلجئين الى التفلسف بالاجوبة . يقيني أنك ستختارين فرع الفلسفة للتخصص .

– لا . سأدرس التاريخ ... يشوقني كثيراً أن أخرج من هذا الحاضر ، لأغوصَ في الماضي . في أمور وقعت ، وانتهت أو أننا نعتقد ذلك . ونطمئن الى ذكرها ، غير مدركين أن تياراتها تجري تحت أقدامنا . وحتى في عروقنا ؛ مع دمنا ، وأنفاسنا .

– أنت لا تمزحين على أيّ حال . وأخشى أن يلحقك الأذى في هذه المدينة العابثة . إنك جدّية أكثر من اللزوم !

– إني طبيعية . إبنة الحقول والكروم . والطبيعة لا تترك فرصاً كثيرة للعبث ، كذلك علمتني حياة العمل القاسي أن أستفيد من كلّ ظرف .

– أرانا سنصبح صديقتين !

– أرجو ذلك ...

ولم تكمل رانية عبارتها . تدخّلت دقّات الساعة . لتذكر الطالبتين بأنّها تتحكّم بأمورهما بعد اليوم .

كانت سهام أسبق الى العثور على مقعد في قاعة المحاضرات ، وحجزت لرانية مكاناً قربها . ثم دعتها الى الجلوس . وقد أحسّت في صدرها ، تفجّر عاطفة رقيقة نحو هذا الطائر الغريب . وكان حديثهما قد ترك أثراً عميقاً في نفسها ، ودفعها الى الاهتمام بالرفيقة الجديدة . ولكي تطرد التساؤلات قدرت ان رانية ستتغير حالما تعتاد الجو الجديد ، ويزول قلق الاغتراب من نفسها . وأنساها ما كانت فيه صوت الأستاذ ، يردّد أسماء الطلبة . وحين وصل الى اسم رانية ، ظلّت صامتة ، فوخزتها سهام لتُعيدها من شرودها . ولم تكن رانية شاردة . فهي لم تفهم إسمها حين خرج من بين شفتيّ الغريب المتحذلق .

تذكّرت سهام انــه لم يكن في شكل رانية الخارجي ما يثير الشفقة . كانت بسيطة اللباس ، رشيقة الحركة ، في عينيها توثُّب وشوق الى قراءة كل ما يُسَطَّر امامهما . غير أنّها كانت نحيلة البنية ، الى درجة الانكسار ، وتمنّت لها درعاً تتقي به أذى المستقبل ، وأشياء كثيرة قد تصدمها ، أثناء تكيّفهــا مع الجوّ الجديد .

بعد الدرس ، تركتها رانية تثرثر مع بعض الرفاق ، وانسحبت الى ركن هادىء ، تحت شجرة الشربين ، ولمحتها من بعيد ، تمدُّ يدها الى جــذع الشجرة ، مداعبة ، ثم تنحني فوق الارض ، تلتقط بعض الاعشاب ، تعبث بها ، وتذريها في الهواء ، ثم تعود الى شرودها ، وتطلّعها صوب البحر . وحين وصلت إليها ، كان الدفتر ما يزال مفتوحاً ، فقرأت على صفحتــه الاولى : « يمر الإنسان فوق الارض مرورَ الظلّ ، وكلُّ قطرةٍ تخرج من قلب هذا البحر الكبير لا بدّ و ان تعود اليه .... وما دامت الحدود تقيّدنا ، فسوف نظلُّ نحيا في خوف دائم من فساد الخمير » .

ثم قرأت في مكان آخر « لو تتوقّف لحظة ، لما كان لنا هذا التشرُّد والضياع .

وربما استطعنا إنجاب الطفلة التي حلمنا بها ! » .

وعندما سألتها سهام عن معنى كلماتها ، هزّت رانية رأسها بلا مبالاة : « وماذا يعني كلُّ شيء ؟ هل عنـــدك الجواب لكل سؤال ؟ هل يمكنك تفسير أمور بسيطة مثل تكسُّر الموج عند أقدام الشاطىء ؟ هل حاولت مرّة أن تغوصي الى باطن التربة . لتسمعي همس البـــذور للأرض ؟ إسمعي العصفور . لماذا يزقزق ؟ لماذا اختار هذه الشجرة بالذات فوق رأسينا ؟ وأنت وأنا ، لماذا التقينا ، وفي هذا اليوم بالذات ، ولم نلتقِ من قبل ؟

تتعبين يا سهام اذا حاولتِ البحث عن الأسباب ، والإجابة على كلّ الأسئلة . كانت هـــذه إحدى هواياتي . والآن ملَلْتهـــا . أرهقتْني ، فاستسلمت للدراسة ، أُغرق فيها ضجري .

ــ ولماذا تتعبين في تسجيل هذه الملاحظات إذن ؟

ــ هواية أخرى . أسجل كلّ ما يخطر في بالي من كلام تافه ، وحين أعود الى الاوراق بعد أيـــام ، أمزّقها ، أو احتفظ بها ، لأمزّقها في مناسبة أخرى . كلامي الحقيقي أكتبه على صفحة الماء .

ــ والدرس الاول . هل أعجبكِ ؟

ــ الجوُّ العام مرح ، حركة وشباب ، لكنّ أُستاذنا لم يعجبني .

ــ رأيي مخالفٌ تماماً . إنه شاب وسيم ، وذكي ويتحلّى بروح النكتة .

ــ ولا يحبُّ المادّة التي يدرّسها ، ولا يؤمن بها ، ومع ذلك يريدنا أن نَدْرُسَها . مُحاضر في الفلسفة ، لكنّه يحيا بلا فلسفة . إنّه متردّد في كل كلمة ، مشكّك في كل قول .

ـ والتشكيك بحدّ ذاته . فلسفة على كلّ لا يجوز لنا الحكم عليه من الدرس الاول .

ـ معك حق يا سهام . أنا متسرعة . قاسية النظرة ، ضيّقة الأفق . وهذه أشياء مكتسبة من بيئتي المحدودة . ومن يدري ، فقد أُبدّل رأيي في الأستاذ إذا اقتنعت !

ومرّة ثانية تدخّلت دقات الساعة ، معلنة بدء الحصّة الأخيرة قبل الانصراف .

هذا كل ما وعته ذاكرة سهام من يومها الاول . وبعدما انصرفت رانية ، ظلّت هي في باحة الجامعة ، تتمشّى ، وتفكّر بها ، وبكلامها العجيب . وشعرت أن التناقض في شخصيتيهما قد يكون رابطة صداقة طيّبة .

تابعت سهام تقليب الأوراق بين يديهـا :

« بدأت أشعر أن نمرود هو الذي يدبّر أمورنا ، ويدير منزلنا . وأبي ، بكل ما له من قوّة وجبروت ، كان يضعف ويتخلّى عن كلّ شيء ، ساعة يُطلُّ نمرود . وتمضي أمي صامتة ، مستسلمة ، تنفّذ أوامر الرجلين بهمّة لا تعرف التعب ، أو الاحتجاج .

لا بدّ لي من العودة الى البداية ، لكي أُوضح حقائق الأمور ، أسجّلها من أجلكِ أنتِ ، يا بنيّتي التي لم تولد . كيف تنطق شفتاي باسمك ! كيف يخرج إسمك من فمي ملفّعاً بالدفء ! هل تكونين لي في يوم ؟ وهل تقع عيناك على كلماتي ؟

أحياناً أتصورُ ذلك مستحيلاً ؛ ربما حصل في جيل لاحق ، لا قدرة لي الآن على تحديده .

منذ وُجدتُ ، وأنا أفترضُ وجودَك مكمّلاً لحياتي ، ومن أجلك أجتهد في وصف بيئتي وزمني وحتى لون الحقول في قريتنا .

من ينبئني بأنّك قد تزورين هذه البقعة من الأرض ، وتجلسين مثلي تحت هذه السنديانة الدهرية ؟

واذا مررتِ بها في يوم ، هل تبصرين آثار قدمي فوق التراب ؟

سأُعيد لك وصف المشهد من جديد :

خلف بيتنا الرابض على التلّة تقوم غابة سنديان قديمة . اختّرت من بينها شجرة بالذات ، تتكىء هناك منذ مئات السنين ، وتشرع أغصانها في كل الفصول ؛

في الربيع ، تفتحها للعصافير تبني فوق أعشاشها . وتحتها فسحة منبسطة ، تحوّلت مع الايام الى ملعب تقليدي لأولاد الجوار .

في ذلك الصباح بالذات ، وكان الوقت صيفاً ، خرجتُ ألعب مع لِداتي . ورحنا نتسلق على جذع الشجرة ، غير عابئين بالقشور الصلبة تنغرز في أجسامنا . وكان « هاني » صديقي المفضّل . صبي في مثل سنّي ، يُجيد إصابة الهدف بالمِقلاع . كما يُجيدُ سرد الأخبار الشائقة .

كنا نتسابق في الجري ، ففزت عليه ، وأثار ذلك غضبه ، فرشقني بحجر صغير أدمى شفتي .

ضعفت وأنا أبصر الدماء تفور من فمي ، وبكيت . هرب هاني خائفاً ، ووصل نمرود . خاطبني بلهجة مؤنّبة لم أفهمْها في تلك اللحظة ، وأعلم الآن ، أنّها كانت غيرة الرجل على فتاته .

حملني الى البيت ، وسلّمني الى أمي . فمسحت بحنوها رعشات ألمي وقلقي ، وراحت تحشو جرحي بالبنّ المسحوق ، الدواء الذي كان يستخدم في مثل تلك المناسبة . آثار الجراح ما زالت محفورة فوق شفتي . وفي الذاكرة وجه نمرود ، تتقلب فوقه غيوم الغضب . ولم يتخلّ عن عبوسه الا بعدما هرعت أمي الى بيت هاني ، وأفهمته أنّ اللعب مع ابنتها محرّم عليه وعلى سواه من الأشقياء .

وأكّد نمرود قولَها :

– لا أريدكِ أن تلعبي مع هؤلاء الزعران ؛ هل فهمتِ ؟ إنّك ...

– إنّي ماذا ؟ أخبرني .

– لستِ مثل الآخرين . وسوف تُدركين ذلك متى كبرتِ .

أجل . اليوم أفهم معنى أقوالهِ ؛ وتصرّفاته . أرادني أن أنمو تابعةً له ، خاضعة لمشيئته ، مُقولبة في قالب تعاليمه . وأن أصبح غريبة ... غريبة .

أحاول تفسير هذه الأمور الآن ، وأنا أسجّل لك ذكرياتي ، غير مقيّدة بالأيام والسنوات .

تعودني الصور ، تتزاحم على شريط الذاكرة ، فأدوّنها على هذه الورقة المستسلمة لمقدرتي ، وهي لا تدري كيف سألقّح صدرها بوخزات الألم والعـــذاب .

إنها قصاصة من صحيفة ، لو مرَّ عليها سواي ، لداسها ومضى . أما بالنسبة اليّ ، فكانت تعني فسحة بيضاء على هوامش الصفحات ، وهكذا ، ترين كلماتي تعانق الأحرف المطبوعة ، تزاحمها ، كما تزاحم أكواخ الفقراء ، قصور الأغنياء ، في الرقعة الواحدة .

في اليوم التالي ، وقف هاني قرب أسوار الحديقة ، وناداني ، ولم يكن نمرود حاضراً . فركضت اليه . وأبصرته يمتطي حصاناً من القصب ، عقد حول « عنقه » شريطة حمراء . دعاني لأقوم معه بنزهة على ظهر « الجواد » . كان يجمع في عينيه البريئتين إغراء الدنيا بأسرها . وفهمت أنه ينوي أن يعيضني عما سبّبه لي من ألم . سرتُ إليه مشدودة بقوةٍ سحريّة ، وما كدت أبدأ لعبة السباق ، حتى أطلّ نمرود حاملاً في يده حزمة صغيرة . ناداني بهدوء : هذه لك يا رانية .... تعاليْ . وتجاهل هاني .

خفت على صديقي من أذى ذلك الجبّار ، فسرت بخطى متعثّرة ، وتبعت نمرود كظلّه .

وظلّ هاني ، فوق قصبته ، يتأمّلنا بعتب ، ويعضُّ أصابعه .

لم تُنسِني مداعبات نمرود ، تلك النظرة البريئة المشحونة بالأسئلة ، والاستسلام . كذلك أدركت أن المراقبة ستكون شديدة عليّ ، كي لا أختلط بالأولاد المفسدين . »

أخذت سهام نَفَساً عميقاً ، وقد شعرت أن الأوراق بين يديها تتحوّل إلى ألواح ثقيلة . واختلط عليها الفهم ، وتراكمت الألغاز ، فلم تدرِ أهيَ أمام مذكراتِ إنسانٍ عاقل ، ام شخص مصاب بلوثة .

وندمتْ على نعْت صديقتها بالجنون ، وشعرت بوخزة في ضميرها، وهي تستعيد عبارة قرأتها ذلك الصباح :

ـ ما هو الحدُّ بين عالم العاقلين والقطاع الآخر ؟

أجل . إنه أدق من شعرة . الأمر نسبي . ولكن رانية لم تجعلها تشكُّ لحظة برجاحة عقلها واتزان فكرها ، فكيف تستطيع خلق هذه الهواجس ؟ وهل تعاني من ازدواج الشخصية ؟

عادت تتأمل الورقة بين يديها . إنها قصاصة من طرف صحيفة قديمة ، مُلئت حواشيها وأطرافها بالكلمات العجيبة .

تمنّت لو أن رانية بقربها ، لتشرح لها معنى كلماتها ، ربما ساعدها ذلك على إدراك المغزى ، فلا تضيع في الألغاز .

ولكن البحث عن الغرائب ، في صميم عملها . مهنتها التحقيق في كل ما يواجهها ، والإنباء عنه .

وعادت الى حوارها مع شخص الصديقة الغائب :

ـ أكاد لا اعرفك يا رانية ، كأننا لم نلتق منذ سبع سنوات . كم كان شديداً غبائي وأنا أظن أني سبرت أغوار نفسك ، واطلعت على دقائق حياتك .

قلتُ لك في يوم بين الجد والدعابة : أحلم بكتابة قصة ، وسوف أجعلك بطلتها . ولم تعلّقي على ذلك في حينه . ما أجهلني ! كنت تعدّين لي العدّة لتساعديني في تحقيق الفكرة .

وابنتك ، التي لم تولد ، وشوقك الملتهب وحنينك الدائم اليها ، لم تبوحي به حتى في حالات اللاوعي ، حين كنت تغيبين مع أفكارك الشاردة .

رانية : أُجهد الذاكرة لأعود الى التقاط الحكاية من أولها :

لم تحضري في صباح اليوم التالي الى الجامعة . خشيت أن تكون الصدمة الاولى قد تغلّبت عليك ، ودفعتك الى الهرب إما الى الطبيعة أو إلى كتاب تاريخ .

مرة أخرى لم أفهم تلك العبارة التي تفوّهتِ بها : « أفضل العيش معهم حين تكون لي القدرة على التحكّم بهم . هذا ما أفعله مع الكتب وحدها . يشوقك سماع واحدهم ، فما عليك الاّ أن تفتحي الكتاب ، وحين يضجرك تطبقينه وينتهي الامر . أما ذلك الاستاذ المغرور ، فما هو السبيل الى إسكاته ؟ »

ضحكتُ طويلاً ، ولم أحمل قولك على محمل الجد . وكنت أجهل أنّك تعيشين أفكارك بغرابة وطرافة ، وربما هذا مصدر عذابك .

وحين عدتِ ، كنت تتأبّطين كتبك ، ومعك ملفّك الصغير . ناديتُك من بعيد ، وهرعتُ أطمئنّ عليك . فصرفتِ قلقي بابتسامة ضئيلة : « طلبوا مني تدريس أحد الصفوف ، في غياب أستاذه . »

جوابك كان مختصراً ، وغارت عيناك في حوض الزهور : « أزهار

الخريف تجرح عينيّ . الإنسان يفرض عليها النموّ في غير موسمها . لهذا تخرج قلقة . فاقدة حيويتها . وليس لها رونق شقائق النعمان الحمراء او الليلكية في جبلنـــا » .

كم جهدتُ لأخرجك من إطار ذلك الجبل ، الذي فرض عليك عزلة دائمة حتى في قلب المدينة ، وفي الجامعة بالذات .

ولم تلبثي أن لفتتِ أنظار الرفاق ، فراحوا يتقرّبون منك ؛ وكان مروان في المقدّمة . كنت أرى شبهاً كبيراً بينكما ، وفكّرت أنه سيحوز إعجابك . لم يكن يفوّت فرصة الا ويسألني عنك . كان يتصنع اللامبالاة ، في بادىء الامر ، فطرح سؤاله بطريقة عابرة :

ــ رانية لم تأتِ اليوم .

ــ لا . وأخشى أن تكون مريضة .

ــ تبدو غريبة هذه الفتاة . إنها لا تبالي بوجودها ، ولا تشعر بمن حولها ، كأنها تنزلق على الارض انزلاقاً .

شئتُ أن اقول له : رانية مثلك يا مروان ، وسبقني لساني :

ــ إنها خجولة . وجديدة على أجواء المدينة . وتحتاج الى بعض الوقت لتكيّف نفسها .

وفي اليوم التالي كنا نسير في الباحة . أنت وانا ، فالتقينا به . بدا الامر وكأنّه صدفة عادية . وكنت أعلم ان مروان بدأ يتحيّن الفرص ، ليبدو أمامك . حولك . ليلفت نظرك الى وجوده .

بادرنا بالسلام ، ولم يسأل عن سبب غيابك . انما عبّر عما يخالجه بأسلوب آخر :

اذا لم تسجّلي المحاضرة يا سهام ، فأنا مستعدّ ان اقدم دفتري لرانية .

– شكراً لاهتمامك .

لم تلفظي حتى اسمه . طرحت كلامك بقسوة ، وتجاهلّ ذلك ، فدعانا لنرشف القهوة معه في مشرب الجامعة ، ولكنك رفضت باختصار :

– وقتي لا يتّسع لذلك .

اعلم الآن ، انه ليس الوقت ، بقدر ما هو الخوف ، كان ظلّه يسيطر على اقوالك وتحركاتك . كنت تخشين أن تقيمي علاقة حميمة مع الآخرين ، خاصة اذا كانوا من الجنس الآخر . حتى صداقتك لي ، كانت سطحية ، ولم تكشفي لي خلالها ، الا عن وجه واحد ، هو الوجه الذي سمحت له بالسفور . وظلّت الزوايا الاخرى قابعة في ظلمات نفسك .

وكنت أحسبك قريبة مني . تبوحين لي بأعمق الأسرار ... وها أوراقك الآن تهدم جدار الثقة والطمأنينة ، وتدفعني من جديد ، الى المضيّ في اكتشاف هويتك . من تكونين يا رانية ؟..

انصرف مروان يجرجر أذيال خيبته ، وتابعنا طريقنا .

سألتك عن حياة التعليم ، فقلت انها ممتعة ، وانك تتوقين الى يوم التخرج من الجامعة ، لتنصرفي بكليتك للتربية .

وكنت أرى أن هذا هو الجنون بعينه . لم افهم كيف تطيقين أولئك

القرود ؛ ساعة بعد ساعة . كيف تتحمّلين ممارسة الأشغال الشاقّة تلك ؟

وحاولتِ أن تقنعيني بأن التدريس يُكسب المرء خبرة عظيمة ، حتى أنك طلبت مني أن أقوم بالتجربة ، ولو على سبيل الاختبار . وأذكر جوابي لك :

ـ أنا لم أخلق لهذه المهنة . من المعقول أن تطلبي مني ان أعمل في « السيرك » أما في التدريس !...

واستغرقتِ في الضحك ، حتى غمرتِ الدموع خضرة عينيك . ولما استفقتِ نظرتِ اليّ بذهول .

وكنتُ بدوري أتأمّلك غير مصدقة ... كانت تلك أوّل مرة أسمع فيها كرّات ضحكتك ؛ على السجيّة . وكنتِ تضحكين بغرابة ، وكأنّك لم تمارسي هذه اللعبة . واستدركت الموقف ، فتابعت حديثك عن تلامذتك :

ـ أحبهم كثيراً . أحب الشوق في أعينهم . والترقّب ، والبراءة . تصوّريهم جالسين هناك ، جماعة من البشر في طور النموّ ، وأنت تحملين إليهم القطرات المحيية ؛ المغذّية . يرفعون إليك أبصارهم بما يشبه الابتهال ، وتحسّين أنك إلهة في معبد . ويطوّقك إيمانهم الطفل . لا . انا لا أستحق ذلك ! كذلك أشعر أن الكتاب يتحوّل أمام شغفهم إلى آلة عاجزة عن إشباع النهم . وأود في تلك اللحظات لو أضمهم الى صدري ، أعطيهم من ذاتي ؛ من عاطفتي ، من أمومتي .

المحبة هي العطاء الحقيقي ؛ والكتب جافة ، شرسة

وقاطعتك في قلب « المحاضرة » ـ ولا اعلم كم نسيت من كلماتك ـ

غير أني لم انس كيف تبدّلت ملامحك . كيف انفصلتِ عن الكيان الارضي ، وطرتِ مع افكارك ، وصرتماً جزءاً واحداً ، وانجلى الشكّ الذي يُسمى جسداً . فصرتِ شيئاً صافياً . تحوّلتِ الى روح :

ـ عفواً يا رانية . لم أكن أدري أنك غارقة في هذه المهنة . إنما الوقت يجبرنا على الذهاب . إنها حصّة التاريخ ، درسك المفضل .

هرعنا الى الصف . وكان مروان واقفاً بالباب . يتظاهر بتدخين سيجارة . وفي الواقع انه كان ينتظرك ، لتختاري مقعدك ، حتى يجلس هو في مكان مناسب . ولم تكن مراقبتي لمروان بسببك ، إنما كان يستأثر باعجابي . كان نقيضي تماماً : هو ساهم متأمّل ، وجدّي . وانا مرحة ، احب الدعابة ، والانطلاق فوق سطح المشاكل . وهو مثلك ، يحلّل كلّ ذرة ، ويُجري لكلّ كلمة حساباً .

وحين كنت أداعبه بأقوالي ، كان يصرفني بلا مبالاة ، ويعتقد أني لا أفهمه . وفي الواقع . انه ظلّ طوال فترة لقائنا يجهل الدافع الحقيقي وراء اهتمامي به ، واسترسالي في التبالُهِ ، وانصرافي الى الدعابة والعبث . كنت أغطّي عواطفي بذلك الستار المصطنع ، حفاظاً على كرامتي .

وحين تخرّجنا من الجامعة ، قـــررت أن أنساه . فأنا أكره العيش في الماضي . وها أوراقك تحييه دون قصد . وتعيدني الى ما حسبتني قد نسيته ، وتوقظ آلاماً طمرتها كالجمر تحت رماد الأيام .

وتنتصر من جديد فلسفتك ، مؤكّدة لي أن لقاءنا فوق هذه الارض . ليس أكثر من مرور الظلّ . غير أنه ظلّ متشعّب ، يمد شباكه ويعقّدها ، حتى إذا حاولتْ إحدى حلقاتها أن تتحرر ، استحال ذلك ، دون قطع العقود الأخـــرى .

وأحاول . من خـــلال أوراقك ، أن افصلك عني . الا أن الشبكة تطوّقني ، وتجرّني الى ماضيّ ، وتبدو أقوالنا ، وأفعالنا ، متشابكة ، متماوجة ؛ وأبصر الطريق التي سلكنا ، مرصوصة بآثار اقدامنا ، ويصعب علينا إزالتها . وبرغم ذلك ، نحاول ، ونسترسل في المحاولة ، حتى يرهقنا المسير ، فنرتمي لاهثين ، يأكلنا الضنى .

وكانت الطريق التي سلكتِها للخروج من قريتك ، الى المدينة ، واضحة الحدود . الا انك غرست فوقها ، وحولها ، الحكايات والذكريات ؛ فضاعت الحدود بين شراسة العوسج ، ودماثة البنفسج .

وحين لقيتُك ، في مطلع الشباب وتعرفتُ الى مروان ، لم أكن ادري بأننا كنا نسجل فصول قصة ، شاءت طبيعتك ، (وهي تحبُّ التعقيد) أن تدفعها اليّ لأنشرها . ولكنّك تجبرينني على نشر فلذة من كبدي ، وإحراق أصابعي من جديد ، في حرارة جمر الماضي .

* * *

وأعود الى أوراقك ، أبعثرها ، أنقّب فيها عنك . عن وجهك الآخر . لماذا ؟ أيّة فائدة ارجوها ؟ لا أعلم . أتابع القراءة والكتابة ، علّني أصل الى مستقرّ . وينغمس قلمي في أوراقك . وتندمج حكايتي بحكايتك ، فاذا هما قصّة واحدة ، وأتابع قراءة قصتك :

« تبدّل حال البيت منذ دخله ذلك الصباح . قذفته إلينا عاصفة تشرينية ، أطلّ مبتسماً ، فمسح وجهي بأنامله ، وانطلقت ضحكتهُ مجلجلة في أجواء الـــدار :

— مبسوطة اليوم يا عمّو ؟

— نعـــم .

— تأمّلي هذه العاصفة ، تشرين قادم بطبل وزمر . تشرين آخر غرسته في حياتك ، كبرتِ اليوم كثيراً ، فأنت غيرك بالأمس .

لم أفهم قوله ، وبقيت اتأمّله ، مأخوذة ، حتى أطلّت امي ، مرحّبة به ، ثم أقبل ابي ، وجلس الثلاثة يتحادثون . ارتفعت الأصوات ، لا تخلو من حدّة ، وسمعتْ صوت أبي يلعلع فجأة : إنها ابنتي . وأنا أدبّر شؤونها . أراك تتدخلُ أكثر من اللزوم . وقهقه نمرود :

— أنتَ واسطة ولادتها ، ولكني السبب الأساسي . لم يكن بوسعك أن

تؤخّر أو تسبّق الموعد . كما لا يمكنك أن تُضيف مقدار ذرّة .

ثم خفتت الاصوات . بينما ازدادت طرْقات قلبي . إنهم يتحدّثون عنّي بغضب ظاهر ، ماذا فعلت ؟ لم أعد الى اللعب مع هاني . لم أقُم بحركة تُثير سخطهم . كيف اختنق صوت أبي ! وامي ما بالها لا تنبس بحرف ؟.

وأقبلت أمّي متهللة الأسارير فزاد ذلك من ارتباكي ، ثم اقتربت منّي وناولتني حزمة مردّدة :

ــ هذه لكِ ، من عمّو نمرود . إنها تضمّ ثوباً جميلاً وساعة وكتاباً . غداً تذهبين الى المدرسة .

كان الثوب جميلاً . كذلك الرسوم الملوّنة على غلاف الكتاب . ونسيتُ ما دار في الحجرة الداخلية وأنا أهبط التلّة الصغيرة ، ممسكة بيد أمي ، مزهوّة بثوبي ، متّجهة نحو المدرسة .

قادتني المعلمة الى حجرة مرصوصة بالمقاعد الخشبية ، بعدما طمأنت أمي الى العناية التي سألقاها على يديها .

كنت حيال ذلك ، صامتة ، تنتابني مشاعر خفيّة ، وأفكار غريبة .

وحين خرجتُ الى الملعب ، تحلّقتْ حولي الطالبات ، يبدين إعجابهن بثوبي الجديد ، ويدعونني الى اللعب ... اللعب ؟ لم اكن ادري كيف أمارسه ، خاصّة وأن الكتاب ظلّ بين يديّ ، يعيق حركتي . وانزويت تحت جذع الزيتونة الكبيرة ، في وسط الساحة ، ورحت أُقلّب صفحاته بصمت .

اكتشفت فيما بعد ، انه لم يكن هناك مبرّر لحذري وتخوّفي ؛ وأصبحت المدرسة واحة في صحراء حياتي ؛ كانت واسطة انعتاقي من عالم الكبار . وفي الطريق اليها ، كنت ألتقي بهاني ، فنتوقف لحظات ، يتأمّل واحدنا

الآخر ، قبل ان يتابع سبيله . ولم نجرؤ على الكلام ، ظلّ طَيْفُ نمرود يقف بيننا ، ويخنق الكلام في حلقينا .

أذكر يوماً من شتاء ذلك العام ، حين عدت الى المنزل ، مبلّلة الثياب ؛ داهمتني العاصفة ، في الطريق ، ورحت أركض ، فلم تسعفني قدماي الصغيرتان ، غارتا في الوحول . وبقيت أصارع مدّة ، حتى خلعت فردة من حذائي علقتْ بين حجرين . وفجأة كان نمرود بجانبي . حملني فوق ذراعيـــه الى المنزل ؛ وشعرت بقطرة ماء حارّة تسقط على يدي . التفتت اليه ، فأبصرته يبكي ، يبكي ؟ لم أصدّق عينيّ ، سألته بسذاجة :

ـ هل تشعر بألم يا عمّو ؟

ـ لا . لا شيء يا حلوتي الصغيرة .

ـ لم الدمـــوع ؟...

ـ دموع ؟... لا أفهم ما تقولين .

أمن أجلي كانت دموعه ؟ لماذا أنكرها ؟ حتى الآن لا أفهم . ولكـــن عاطفتي استفاقت في تلك اللحظة النـــادرة ، فطوّقت رأسه بذراعيّ ورحت أقبّله وأردّد :

ـ أحبّك .... أحبّك كثيراً يا عمّو نمرود . أرجوك لا تبكِ .

ظلّ بجانبي بعدما بدّلت ثيابي ، وكان يدفىء يديه أمام نار الموقد ، ويغمر بهما راحتيّ وقدميّ ، ثم لفّني بعباءة كان يرتديها وهو يردّد :

ـ إنك ترتعشين كالعصفور المبلّل ، يا رانية المسكينة .

حقّاً ، كنت أرتعد . كان جسمي أنْحل من أن يتحمّل تلك التجربة ، فمرضت . ولم يفارق دارنا طوال أيام مرضي . كان قلقاً ، مهموماً . وأحياناً كثيرة كنت ألمح دمعات تتدحرج على خديه ، وترشح من طرف ذقنه .

شفيت من مرضي ، لأكتشف أن شغفي به يزداد ، خاصّة حين كان يحملني فوق ركبتيه ، ويمضي في سرد القصص الغريبة .

وصباح يوم الأحد ، بعد اسبوع ، أخبرني ان أمي نذرت أن تحملني ، وتمضي الى الكنيسة حافية القدمين .

كان الخبر مزعجاً . لم أُرد لأمي أن تمارس ذلك الخضوع من أجلي . ورجوته ان يرافقنا ، فرفض . ولكن ؛ بعدما دار القداس ، والْتأمَ شمل المصلّين ، شعرت به قريباً . تخيّلته واقفاً وراء الكاهن ، يردد من شفتيه الصلاة المستعجلة ، وتصوّرته ساجداً أمام ايقونة العذراء ، المذهّبة ، يقنعها لتنطق أو تبكي ، او تجترح أعجوبة جديدة .

وكان صدى صوته يختلط بهمهمات المصلّين ، ونكهة وجوده ترتفع من المبخرة ، ويفوح عبقها في أجواء الكنيسة . وبقيت جالسة في حضن الوالدة ، ترشف أُذناي إيمانها السائل في صلاة « الأبانا » وعينا أبي مسمّرتان فوق باب الهيكل . تراه شعر مثـــلي بحضور نمرود الخفيّ ؟

شغلني التفكير به عن كل ما حولي ، كما كان إيمان أمي يلهيها عن الصقيع الناهش قدميها . كانت ما تزال حافية ، وقدماها تعانقان البلاط المثلج ، والعاصفة في الخارج تزمجر وتهدد .

توارد ذكريات . هذا هو كلامي . ماذا يعني بالنسبة للآخرين ؟ لا ادري . غير أنه يريحني ، ويوصلني الى حدث بدّل علاقتي بنمرود ، وقلب عاطفتي من المحبة الى الكراهية .

في ربيع ذلك العام ، أطلت على الاسرة طفلة جديدة . أصبح لي أخت . يا للفرحة الكبرى !

لا أذكر السنة ؛ فالتواريخ تهرب من بالي . إنما أحسّ حتى الساعة رعشة الفرح التي تموّجت في بيتنا ، وانتقلت مع وقع خطواتي أنّى تحرّكت .

كنت أترع من منهل فرحتنا تلك ، ولا أرتوي ، وأهيم في أجواء الطبيعة الربيعية ، ولا أتعب . وفي يوم عطلة ، قادتنا المعلمة الى ينبوع ماء ، لنقضي حوله يوماً مرحاً . أذكر ان الرفيقات ، اختَرنني لاكون العروس في لعبة شعبية تمارسها الفتيات الصغيرات . جمعن لي الازهار وحبكن منها العقود والأساور ، والتاج الأبيض الجميل .

كنت أشعر اني ملكة والعالم من حولي رهن اشارتي .

يا لنفوس الصغار ، ما أشدّ سذاجتها !...

وفي لحظة انتصاري ، ومن حولي الرفيقـــات يهزجن ، ويرشقنني بالزهر ... في ذروة فرحتي تلك ، أطلّت سعاد ، شقيقة هاني . كانت قادمة من الضيعة ، تركض لاهثة ، وتهتف باسمي :

ــ رانية .... رانية ، أسرعي الى البيت ، أختك الصغيرة ماتت .

ماتت ؟ كيف تجرّأت سعاد على التلفّظ بالكلمة ؟

نثرتُ الأزهار ونفضت جسدي من غمرة الفرح ، وركضت . وفي الأجواء ، كنت أسمع هاتفاً غريباً يردّد : « قتلها نمرود . خطفها نمرود . لن تبصريها بعد اليوم . لن يبسم لك ثغرها الزهـــري » .

وأجيب الهاتف :

– نمرود يحبّنا . لا يسبّب لنا أذى .

كانت صرخاتي تشقّ جدار الصمت ، وتجفّل العصافير فوق أغصان الشجر . تمنّيت لو كانت لي أجنحة أطير بها .

لماذا السرعة ؟ ماذا كان ينتظرني ؟ لا أدري . إنما شعرت برعب الكون ، بألم الكون ، بكل ما في الوجود من عذاب ، ينسكب على جسدي ، ويُنيخه ، يكاد يسحقه .

ارتميت في حضن أمي أجهش بالبكاء .... ثم دفعتني ثورتي الى إنشاب اظافري في يديها ، ووجهها :

– أين اختي ؟ أين هي ؟

وكانت نظرات امي متحجرة ، وقد تحجّرت فيها الدموع ، وأرخى الأسى ستاره على قسمات وجهها .

وقفتُ مأخوذة ، ثم عدت أهزّها : اين اختي ؟....

اومأت إليّ عيناها : هناك !...

* * *

مع غروب شمس ذلك النهار ، كان موكب مؤلّف من بضعة رجال ، يسيرون بتؤدة ، وقد رفعوا فوق اكفهم نعشاً صغيراً وردي اللون . وكان ذلك آخر ما ابصرته عيناي من طفولة شقيقتي .

عدت الى امي اسألها ، هذه المرة ، بحزن :

– ابي ، اين هو ؟ وعمّو نمرود ؟

– ذهبـــا . مع الرجال .

لم أستطع أن أبتلع سؤالي ؛ فقذفتها به :

– امي ، هل صحيح أنه قتلها ؟.. عمّو نمرود ، أعني .

– كلا يا حبيبتي . تلك مشيئة الله .

بعد ذلك ، توقّفتُ عن طرح الاسئلة ، وتبعتها الى غرفة النوم ، وأبصرتها تنحني فوق السرير الفارغ ، تمرّغ وجهها فوق ستائره ، وتجهش بالبكاء ؛ ولم يلبث الصوت أن عاد يرعد في وجودي كالزلزال :

– نمـــرود هو السبب .

ويخرسه صوت امي :

– إنها مشيئة الله .

في اليوم التالي ، أرسلوني الى المدرسة . وهناك ، كان عليّ ان أقف بمرارة لأواجه الأسئلة الفضوليـــة تنطلق من أفواه الرفيقات ، وتنغرز في صدري كالخناجـــر .

هربت منهن الى وحدتي . وبكيت بصمت ، وفي هذه المرة لم يكن أحد بجانبي . وتعلّمت درساً قاسياً في مصيري الموحش .... وكنت أتمنى لو يكون هناك ، إنسان واحد ، يستطيع أن يُعيد اليّ الطمأنينة ، ويجيب على أسئلتي :

-- هل نمرود هو السبب ؟ أم أنها مشيئة الله ؟ والله يحبّنا ، فلماذا يحرق قلوبنا ويسلبنا تلك الدمية الحلوة ؟

كان قلبي ينفطر ألماً ، والرفيقات يرقصن على أنقاضه . وظلّت دموعي الحارة تغسل وجهي ، حتى اكتشفتِ المعلمة مخبإي ، فقادتني الى الصف . وهي تمسح دمعاتي بكلماتها المؤاسية .

* * *

مسحت دمعات اغتصبت السبيل الى عينيها . وتابعت سهام العبث بالأوراق . ويداها ترتعشان ، وكأن قوة عجيبة ، غامضة ، تتسرّب اليهما . تخيّلتْ للحظة . أن تلك الاوراق قد تتحرّك . وتصبح ذات قدرة على الجري ، او النطق . أو حمل السياط .

راودتها فكرة طرحها من النافذة ، والتخلص نهائياً من الكابوس . الا أن الطاقة العجيبة كانت تسيطر عليها ، وتبذر في ذاتها حشرية وحباً للاستزادة من الاطلاع والقراءة .

استقرّت عيناها على عبارة كُتبت فوق غلاف دفتر أزرق اللون : « لا شيء يعود الى سابق حاله . العبارة التي اقرأ هي غير ما جال بفكري . غير ما خطّ قلمي . واذن وجودنا كلّه لا يتعدّى كونه خطوطاً باهتة فوق صفحة بحر بلا قرار » .

لم تدرِ سهام ، لماذا ظنّت أن رانية كتبت عبارتها تلك في صف الأدب الانكليزي . تذكّرت ذلك الصباح جيّداً ، وعادت ذاكرتها تعرض شريط الوقائع واللحظات :

ستائر المطر تغلّف زجاج الصف ، وتحجب عن الأعين شجرة تعذبها العاصفة في الحديقة . وصلت رانية مبكرة الى الصف . استبقت العاصفة .

فلم يصبها الرذاذ . شعرتُ بثقل معطفي . فخلعته وطرحته على كرسي في زاوية القاعة . كان مروان يلتصق برانية ، يهمس في أذنها كلمات ، وقد غلّفت وجهيهما سحابة غامضة . لم يكن الدرس موضوع حديثهما . ولا أنا طبعاً .

جلست في مقعدي ، قرب رانية ، ولاحظت مروان يعيد إليها دفتر الملاحظات ، وقد نسي ما حوله وغرقت عيناه في قسمات وجهها .

صرَفَنا دخول الاستاذ عن أفكارنا الخاصة . ولم أرفع بصري الى الكهل الانكليزي المرح ... كنت أحفظ شكله غيباً : السروال « السكوتش » ، والقميص الكاكية ، وفوقها معطف بلونها ، ثم ربطة العنق الجرباء ... ولكن المظهر المهلهل يتلاشى أمام البسمة المشرقة ، والنظرات المتفائلة ، والافتتاحية التقليدية : « تمتعوا بأيام الصحو ، قبل أن تهجم العواصف . إنكم لا تقدّرون نعمة الطبيعة في بلادكم : دمعة وابتسامة . »

كنت أصغي بنصف سمعي ، وبقي الوعي يرافق جاري ، والتساؤل القلق يعصر قلبي . ماذا قال لها ؟

بالطبع لم أوجّه سؤالاً كهذا إليهما . انصرفت بعد الدرس الى الثرثرة المرحة ، سبيلي الى تغليف حقيقة مشاعري . ووقفنا في الرواق نبحث موضوع الطقس ، والامتحان القريب .

تجاهلتُ رانية طوال ذلك النهار . ولما لقيتُها في اليوم التالي ، هرعت اليها ، يدفعني تأنيب الضمير .

شعرتُ برغبة في حضنها ، للتعويض عن سوء ظني ، لكنّ الفكرة تراجعت أمام ابتسامتها الهادئة . بدت وكأنّها لم تشعر بتخبّطي . الصفاء

نفسه ؛ والهدوء والعذوبة . ولم نعد الى الكلام عن مروان . لكنّ عينيهـا ظلّتا شاردتين ، ونحن نجلس فوق الصخرة المظلّلة بأغصان الشربين .

وكانت الشمس دافئة ؛ ذكّرتني بأقوال الاستاذ . كانت الطبيعة تبتسم لنا.

وفجأة ، خرجت رانية من صَدَفَتها : « أنظري ذلك البناء الجديد سوف يخفي حاجباً من البحر » .

كان هذا شأنها كلما واجهت الطبيعة ؛ شرود وتأمل ، وغوص الى الأعماق . وكنت أفكر ببناء آخر : حب ينمو بقربي ، بصمت ، وبعيداً عن الأبصار . وكانت أسواره تلامس قلبي ، وتدفعني الى مشاركة رانية في التأمل والشرود بين دفق الامواج .

مرّ بنا رفّ من الطلاب . كانت اصواتهم ترطن بلغات ثلاث . وتساءلت : هل تتفتح زهور الحب في قلوبهم مثلنا ؟ وأي حب هو ؟ أيكون متكاملاً أو جانبياً ؟ أم انهم يدوسون الزهور ، دون أن يستوقفهم تململ الحياة في عروقهـا ؟

ثم لم أعد أطيق الصمت ، كسرت طوقه بسؤالي :

ـ رانية ، ما رأيك بمروان ؟

لم يفاجئها سؤالي . تطلّعتْ الى وجهي ثم ردّتْ بهدوء :

ـ شاب طيّب ... ومهذّب .

وغرقتْ في صمتها من جديد .

وقررتُ ان اتابع وخزها بإبر كلماتي :

- يبدو لي أنه معجب بك. ويمكنني القول إنـــه هائم ، غـــارق في هيامه . ألم يخطر لك ذلك ؟

– لا أعتقد أن ظنك في مكانه يا سهام . أحب أن أبحث معه مواضيع الأدب والحياة ، ولكن العلاقة تتوقف عند حدود الزمالة .

– بالامس ، بدوتما لعيني كعاشقين متيّمين ...

ولم تسمح لي رانية بمتابعة الكلام . انتفضت بغضب :

– أرجوك يا سهام ، لا تمزحي بأمور كهذه . هل تُقَدِّرين معنى كلامك ؟ العشق ليس ما ابحث عنه . ليس في هذه الجامعة على أي حال .

– اهدإي يا رانية ، إني لا أحب مضايقتك ، وأنت حرة ، ولكن لا أرى مانعاً من أن يُزْهِر الحب في قلبين فتيين . وبين شخصين تجمعهما امور فكرية، ويمكن القول عاطفية . واذا كنت لا تشعرين ، فقد آن الوقت لذلك ، أيتها الفيلسوفة ، ألا تلاحظين نظراته ، وتصرفاته حيالك ؟ وتعمّده ملاقاتك في كل لحظة ؟...

– لك أن تظنّي ما شئت ، أما أنا فالحبّ ليس وارداً في ذهني ، وحبّ رفيق جامعي بصورة خاصة ...

– ولكن الحبّ لا يستأذنك . انه يهجم كاللص . او يتفتّح في القلب كالزهرة بعيداً عن مشيئتك وارادتك الحديدية .

– سهام ، دعينا من هذا الكلام . أنا هنا لغاية الدرس، لا في سبيل العبث واللهو . ولا علاقة لي بأفكار الآخرين .

– مروان لا يعبث ولا يلهو ، لكنه مثل أي شاب طبيعي ، يبحث عن

الرفيقة ، وهذا ما نفعله نحن ، في الوعي واللاوعي . وأحسك في هذه اللحظات تصارعين نفسك ، أو لنقل تمرّين في مرحلة يتصارع فيها وعيك مع الارادة اللاواعيـــة .

انتفضت رانية واقفة . لم تدعني أتابع حديثاً تنفتح له نفس كل صبية . سارت وحيدة ، دون ان تكترث لدعوتي . ورأيتها تتوجه الى المكتبة لتغرق في اجوائهـــا .

ولم أُقدِّر ، في تلك اللحظات العابرة ، أننا كنا نسجِّل دقائق قصّـــة غريبة ، أنا أحب مروان ، وأضطرّ لحجب عواطفي بدافع المحافظة عـــلى كرامتي ، وخوفاً من جلب الأذى لرانية ، ومروان منصرف عني ، إليها . وهي بعيدة ، في عالم خاص بها ، لم يتسنّ لنا طَرْقه بعد . وبدون أن تريد ، تجرّنا خلفها ، في سبلها المتعرِّجة ، اللامتناهية ، لننتهي وأيدينا مطبقة على الفـــراغ .

قررتْ بعد ذلك ألاّ أتحدث مع رانية عن مروان . ولكن القرار أُلغي تلقائياً ، حين عدنا الى اللقاء خلال عطلة الاسبوع .

كنت قد دعوت رانية الى تناول الغداء على مائدتنا . وبعد الظهر ، اعتزلنا في غرفتي مع كتبنا وواجباتنا .

جلسنا نرشف القهوة ونثرثر .

كانت رفيقتي مرحة على غير عادة . وانسجمت في الحديث ، فأنستني تحفّظي . وكان وجه مروان يقف بيننا ، يسدّ الطريق على سواه من مواضيع ، ويحوّل كلامي أنا في اتجاهه . وعادت رانية تؤكد لي أنها تلجم عاطفتهـــا عن تجاوز حدود المنطق . ارادتها الواعية تمسك بزمام الامور . ولا تسمح

لعربة العاطفة بالشرود أو الجموح . وكان موقفي مناقضاً :

ـ العاطفة شعور طبيعي من واجبنا ان نغذيه ولا نخنقه .

وفجأة التفتت الي تسأل :

ـ لماذا يشغلك امر مروان ؟ ولماذا تهتمّين بي ؟

أجبتها وكأني اجلس امام كرسي اعتراف :

ـ لأنه دون سواه ، يثير اهتمامي . واذا شئت ، اقول لك ، يحرّك عاطفـــتي .

ـ إذن اسئلتك هادفة . تريدين ان تمهّدي السبيل ، وتتأكّدي من خلوّه من العثرات . سهام ، صدقيني ، الحب ليس وارداً بيني وبين مروان ، واذا شئت أكون الواسطة لجمعكما ، للتقريب بينكما . أنسحب . أرفض التحدّث اليه . أقوم بكل ما من شأنه ان ينفّره ويبعده عني .

ـ يا لسذاجتك يا رانية . تجهلين أن مثل تلك المحاولات تزيده تعلّقاً بك . ألم تسمعي بلعبة القط والفأرة ؟ هذه حالنا معهم . نقترب فيهربون . نمتنع فيزدادون التصاقاً .

لا أقصد ان ازرع بينكما الشقاق ، وكلاكما عزيز على قلبي ، ولكن ، قولي بربك ، كيف نفسّر هذا الوضع ؟ من أيّة جبلة صنعت العاطفة البشرية ؟

ـ العاطفة ، كالزئبق . والحب كما قلتِ ، إرادة عليا ، تهبط علينا . وحين قرر مروان أن يختارني (كما تعتقدين) لم اكن على استعداد لاستقباله ، لأنّ أموراً اخرى تشغل بالي . ويمكننا القول انه كان هو مشغولاً حين بدأت البذرة تتحرّك في صدرك .

كيف نسير في دروب الحياة ، نتلاحق ، او نتوازى ، وقلما نلتقي !..

– تقولين إنك منشغلة بأمور اخرى ، عاطفية طبعاً ، أيتها الخبيثـــة ، لماذا لم تعرّفي لي بذلك من قبل ؟

سألتُها ، وقد شعرت في نفسي بانفراجة مريحة . إذن لن أسبّب لها الألم . بامكاني ان اتابع الطريق ، وقد أصل في النهاية الى ما أبتغي .

ولكنّ رانية ، عادت تنفي بكل تأكيد :

– الأمور التي تشغلني يا سهام لا علاقة لها بالحب . هناك غاية أسعى اليها . ولا أريد أن يعيقني عن الوصول أي ارتباط .

وفهمت يا رانية ، أنك بهذا الجواب ، كنت تضعين الخاتمة لموضوع حديثنا . نهضتِ واقترحتِ ان نقوم بنزهة في شوارع المدينة . لم يكن هناك هدف معيّن . قلت : أحبّ أن أرى مدينتكم في كل أحوالها . واليوم نهار عطلة ، والشوارع مقفرة . والأبواب موصدة ، وهذا جوّ مناسب للتشرّد .

كنتُ فخورة بك . سعيدة برفقتك . ولم تشعري بالحرج وأنت ترتدين ذلك المعطف الرمادي القديم . وكان شعرك مبعثراً ، مسرحاً لأصابع الريح ، بينما كنتُ أرتدي بذلة انيقة ، وقد ارتفع فوقها رأسي بأحدث تسريحة شعر . ثرثرنا كثيراً . وحين مررنا بمخازن الثياب ، قلتِ ببساطة : « الإفراط في الأناقـــة يعيق مسيرنا . أنا مثلاً ، لا أفكّر في الصباح أيّ فستان أرتدي . هناك ثوب واحد ، وفوقه المعطف لايام الشتاء »

أدهشني قولك . ولولا معرفتي طيب عنصرك ، لفكّرت انّك توجّهين الملاحظة الي . وقلتُ بلهجة مستغربة :

– ولكن الأناقة لون من ألوان التحضّر .

– وانا ، ارى الثياب وسيلة لستر العري ، ومسايرة التحولات الطبيعية . لكنّ ترف الحضارة حوّلها الى أغراض اخرى ، وهذا ما يزيد التأكيد على تأليه المادّة على حساب الفكر والروح .

– ولكن الفكر هو الذي ابتكر الثياب . أو قولي انه الفن .

– ليته حوّل زخمه في اتجاه آخر .

وصمتتُ خشية ان تشعري بالنقص حيال أناقتي . وفكّرت : ربما هذا الشعور ذاته هو ما يدفعك الى مهاجمة التفنّن بارتداء الملابس . ونسيتُ أنّك كنتِ على جانب من الجرأة يجعلك تعيشين فلسفتك ، وتحوّلين أقوالك الى أفعال ، ولا تبالين بعصرك أو بمجتمعك .

كنتِ انسانة من كل العصور ، لكل العصور. تحوّلين ما يُعتَبر نقصاً عند سواك ، الى وسيلة إعجاب بك .

كنتِ أنيقة في شخصيتك، ومزاجك. وصرتُ افكر أن إهمالك هذا قد يتحوّل الى فلسفة تمارسها طالباتك وكل من احتكّ بك ، ويصبح الإهمال هو الموضة الشائعة للمرأة المفكرة .

سرنا طوال ساعتين ، وكانت عيناك تلتهمان الأشياء . تقفزان من قبّة كنيسة الى ذروة مئذنة ؛ تزحفان فوق جدران المساكن ، تغلاّن بين الأزقة وكأنهما تطاردان شبحاً مجهولاً ، يتدلّى من تيجان الغيوم.

سألتُك ما الذي يعجبك في هذه المدينة ؟ فابتسمتِ مجيبة :

تناقضاتها الساخرة . انظري تلك ناطحات سحاب والى جانبها كـــوخ حقير . وهذا مخزن لبيع أحدث الملابس الباريسية فوق كتف مشواة للشاورما . وهذه سيارة كاديلاك تكاد تدوس قدم صبي يبيع علكة . وثمة أشجار مسكينة ، خنقها الزحام ، وهي تحاول جاهدة أن تطلّ برؤوسها من خلف الجدران الداكنة ، لتؤكّد صراع الطبيعة والانسان ، وتحوّلهما الى كتلتين تداعبهما يَدُ الزمـــن .

وأيّ زمان كنت تقصدين يا رانيـــة ؟ زمانك الذي لم تعرفي كيف تحدّدينه ؟ أم زماننا الحاضر ، الذي ظللت ترفضينه وتتمرّدين عليه ؟....

ومن بعد تلك الجولة ، صرتُ أنظر الى ما حولي نظرة جديدة . بتّ ألاحظ محيطي . ومن قبل ، كنت أمرُّ في الشوارع ، مثل الجواد المكدون ، أكاد لا أرى سوى موطىء قدميّ .

شعرتْ سهام أن مطالعاتها في موضوع علم النفس لم تذهب سدى . وهي بحاجة اليها الآن ، اكثر من اي وقت مضى ، علّها ترشدها الى فهم ما يتحرّك بين يديها ، وفي تحليل رموز شخصية أقرب إنسانة إليها .

وبات في حوزتها إشارتان مهمّتان ، هما أشبه بمنارة الهداية : علاقة رانية بشخص مسنّ . وحزنها الدفين على فقدان شقيقتها . وهي تعلم ان الاختبارات التي يمرّ بها الأطفال تبقى خزينة ، بتأثير ضغط العالم الخارجي ، العالم الذي لا يرحم ، ولا يحاول أن يفهم ، ولا يستطيع أن يرى باعين الأطفال ، أو يحسّ بشعورهم .

وبات لديها ما يشبه المعادلة الرياضية ، انما تنقصها عناصر كثيرة لتكتمل . وعن هذه العناصر قررت ان تتابع البحث بين الاوراق المبعثرة ، والذكريات الحميمة .

وكان لا بد من عودة الى القراءة :

« امي ، لماذا تصرين على نفي التهمة عن نمرود ؟ احسه قوياً ، سطوته تغمر حياتنا ، وهو لا شك سالبنا حبيبتنا الصغيرة . حدس غريب يهمس ذلك في اذني .

« قطبت حاجبيك ، حين رددت هذا الكلام على مسمعك . واجبت

بحرقة : « إنها تنام بسلام ، في حضن جدها الراحل » . ورددت جارتنا أم سلمان : ملاك طاهر . عصفور من عصافير الجنة ، لا يجوز الحزن عليها .

« وظل الجزع مغروساً في قلبي ، ممتداً حتى اطراف انامل . صرت أنام خائفة . وأنهض مرتعدة ، وأنفر من وجود نمرود ، أمقته ، ولا أجرؤ على الكلام . وظلّ يزورنا كسابق عادته ، لكنه بات عاجزاً عن انتزاع بسمة من ثغري .

« صرت أختلق شتى الأعذار لأنطوي على نفسي ، وأقبع في غرفتي الصغيرة ، وأقفل الباب خلفي . وتبدّلت سحنة أمي وأبي ، همّ ثقيل غرس فوق وجهيهما ، وأخبرني حدسي الطفل بأن تلك الغمامة باقية ، ولن تزول .

وفي صباح يوم ، ارتميت في حضن ابي ، فطوّقني بساعديه ، وفتح فمه ليقول شيئاً ثم بدّل رأيه .

هل كان يودّ الاعتذار عن صديقه نمرود ؟ ام كاد يشرح لي ذلك اللغز العجيب ؟

وأمي . ظلّت على مقربة منا ، تعالج بالرتق قطعة قماش ، وقد زوّت ما بين عينيها ، وتهدّل الشعر حول وجهها بإهمال .

وددت لو كان باستطاعتي ان أهزّ كتفي ابي ، أستنطقه ، اسأله اين هربت مقدرته ؟ ما باله يخرّ عاجزاً ؟

وظلت كلماتي على حافة شفتيّ ، مرتعشة ، مخنوقة .

تمنّيت لو يقوم بعمل حازم ، فيطرد نمرود من دارنا ، ويريحني .

لم أعد أستطيع رؤيته . صار « بعبعاً » مخيفاً ، يهدّد لحظات وجودي . وبت أخشى أن يداهمني في يوم ، ويخمد أنفاسي ، كما فعل بالطفلة الصغيرة . واذا كان الآخرون يعجزون عن حماية أنفسهم ، فكيف أستطيع أنا ؟ ...

مثل هذه الخواطر صارت تؤرجحني وتؤرّق لياليّ ، ولم تعد أحلامي وردية مرحة . صارت هواجس وكوابيس .

وفي إحدى الليالي ، نهضتُ صارخة ، فهرعت امي تحضنني ، وتسأل عن سبب صراخي . كانت الظلمة من حولي تتراجع امام النور الخافت من قنديل الكاز في يدها ، ونوره الباهت ينعكس على وجهها فيزيده شحوباً :

ــ ما بك ؟

صرختْ وهي تهزّني

وكان جوابي لها سؤالاً :

ــ ما بك أنت يا أمي ؟

ــ سمعتك تصرخين ، وكأنما لدغك عقرب ؟

وتذكّرت سبب صراخي ، وانا استعيد صورة الحلم المرعب . ولكني لم أخبرها به . خفت ان ازيد ألمها ، واكتفيت بالقول :

ــ ربما كنت أحلم .

نامتْ امي . وسهرتُ أستعرض الحلم ، الكابوس :

كانت جماعة من الرجال ، تقترب مني ، حاملة صندوقاً وردي اللون . وكان على رأس الجماعة نمرود ، يمد ساعديه ، وقد أشرقت فوق وجهه ابتسامة راضية . كان متجهاً صوبي ، ودون ان يتفوه بكلمة فهمت قصده :

كان ينوي ان يضعني في ذلك الصندوق . ويحملني ليغيبني في ظلمة القبر . عند ذلك صرخت .

كان خوفي في اللحظات التالية ، أعنف منه في المنام ... وشعرت بالعرق البارد يبلل جسمي . وينفذ من ثيابي . ويرسل الرعب رعدة مجنونة في أوصالي . ويضاعف ضربات قلبي . لم أعد أجرؤ أن أغمض عينيّ . وبقيتُ اتصارع مع « غول » الرعب ، حتى حملني النعاس غصباً عني .

اما نمرود ، فقد غاب عنا بعد ذلك ، مدة طويلة . انتشر خبر سفره كومض البرق . لم أحزن لدى سماعي النبأ . كذلك لم أشعر بفرح الخلاص ، وكأنما غيابه الجسدي ليس سوى جزء من غياب ، لأن مقدرته تتخطى حدود الجسد ، كما تطوّق المكان والزمان معاً . وبدل ان أنسى في غيابه شكله . وصدى صوته ، فقد راح وجوده يتضخّم ، ويتجسّد في كل ما يحيط بي . كان الهواء الذي أتنفس . والشمس التي تشرق ، والماء الذي ينقع الغلّة . كان الضحك والعبوس . الالم والمرح . راحة النوم ، وحركة اليقظة . وبات الناس ، كل من أعرف من الناس ، قطعاناً في حظيرة أقفلَ بابها ، وحمل معه المفتاح .

وبات بالنسبة اليّ الجلد الذي يلفّ عظامي ، ويجمع كياني ويمدّني بالنور وانفاس الحياة .

وتحولتُ من كرهه ، الى مقت ذاتي . تمنيتها ان تنتصر عليه . وتتمرّد . وتخرج من الحظيرة ، تماماً كما كنت أتمنى او يصبح أبي أقوى منه . فيطرده من وجودنا ، ولا نعود نبصر له وجهاً . ويبدو ان كل مد او جزر . وكل محاولة للخلاص . كانت تقرّر بمعرفته ، وبأمر من إرادته المسيطرة .

وهكذا عشت أياماً في قلقِ الانتظار .

كنت أتمنى لو يعود ، وأخشى في الوقت ذاته ، نتيجة تلك العودة وما كنت لأدري انأموراً كهذه لا تقرّرها مشيئتي وتمنياتي ، بل تتمّ في معزل عنا . وبناء على رغبته ، وهي فوق كل رغبة .

وقد عاد فعلاً . كيف ؟ ومن اين ؟ لا اذكر .

أطلّ كإطلالة الشمس بعد احتجابها اياماً خلف غيوم الشتاء .

كنت واقفة أمام النافذة ، حين لمحته ، يرتدي ثياب الصيد ، وقد علّق فوق كتفه بندقية كبيرة . لم أدر كيف اتصرّف : أفرح أم أحزن ؟ وما سرّ الرعشة التي هزّت أعضائي ؟ .

هرعت الى المقشّة ، أستعين بها في كنس أرض الدار ، وأعطي نفسي فرصة الاستعداد لاستقباله . تظاهرت بأني لم أره وهو يطأ العتبة ، ويقف في الباب كالمارد . سار نحوي بتؤدة ، وشدّني بخصلة شعري . توقّفت عن العمل ، وانتصبت أحدّق الى عينيه . لمحت فيهما ألقاً غريباً ، وأشرقت فوق شفتيه بسمة شفافة :

ــ اشتقنا يا عمو .

قالها دون مقدّمات . ولم أجبه . راحت دموعي تغسل وجهي ، بينما انغرزت كلماته في عظامي .

حاول أن يرفعني عن الارض ، ويحملني كما كان يفعل في أيام مضت ، فتراجعتُ خجلاً .

ـ صرتِ صبية يا حبيبتي . اين أبوك ؟ جئتُ أدعوه لنخرج معاً الى القنص .

ـ أبي في الحقل .

أجبته وقد توقّف وعيي عند حدود الكلمة التي أفلتت من لسانه بصورة عفوية « حبيبتي » راحت تطنّ بيننا بأجنحة فَراش ملوّن ، وتمسح آلاماً تراكمت أيام الحزن والقلق .

اذن ، كل ما ظننته به كان مجرّد أوهام .

وهو محبّ ، ومشتاق ، و .... كأنه لم يرحل ، ولم تكن بيننا تلك الهوّة السحيقة من الكراهية . بل كانت مبنية من جانب واحد ، من جهتي ، ولذلك انهارت واختفت آثارها .

ـ سوف اجلس قليلاً بانتظار عودته . طيور السمّن منتشرة في كل مكان ، وفكرت ان نخرج لاقتناص بعضها ، هل تحبين الصيد ؟

لم اجبه . كاد سؤاله يحفر قشرة الطين الطريئة فوق بئر الاحزان . العصافير البريئة عاجزة كالاطفال . والرصاص الطائش يبحث عنها ، والانسان يتابع العبث ، والمرح ، منتشياً بدمائها . وتساءلت : اي نوع من الرصاص ، استخدم نمرود ، وهو يصوّب فوهة « الجفت » الى صغيرتنا الطاهرة ؟

ارتفع صوت امي مهدئاً : « انها مشيئة الله » .

وهرعت الى المطبخ لأعدّ له فنجان قهوة .

مدّ يده بكثير من الخشوع ، وتناول الفنجان وهو يغمرني بنظراته المحبّة . ثم أخذ من جيبه رزمة وضعها بين يدي :

ـ هدية عربون اجتهادك . بلغتني اخبار تقدمك وذكائك فجئتك بهذه .

فضضت الرزمة ، فوجدت فيها كتاباً جميلاً . نسخة أنيقة من الكتاب المقدس .

-- والآن ، بات بامكانك ان تفهمي حزورات « أبونا الياس » وتجيبي عليها .

يا لدهائه ! .. لا يفوته أمر . وهو يخشى أن تتحول صداقتي عنه الى رجل الدين العجوز ، الذي يختلف الى دارنا ، حاملاً الي أقراص الحلوى ، والهدايا الصغيرة ، وقصصه المسلية عن القديسين . وقد سحرني عالمه الغريب . فلجأت الى الكنيسة ، أنشد فيها الراحة ، والهدوء . ولاحظ أبونا شغفي هذا ، فاجتهد في تنميته ، وصرت أنتظره على باب الكنيسة ، حتى اذا ما أقبل لتأدية صلاة العصر ، اقتربت أقبّل يده ، وأمسح وجهي بطرف كمه . وأهرول الى قاعة الكنيسة الخاوية الا من صور القديسين ، وعبق البخور ، فأتنقل امام الأيقونات ، تارة أصلّي ، وطوراً أتأمل الاحداث الغريبة ، المعبرة عن قصص وحكايات ، لا يجيد تفسيرها سوى أبينا الكاهن .

تراه شعر بالغيرة ، وجاء ينتزعني من أحضان القديسين . كما فعل في يوم مضى ، حين تصادقت مع هاني ؟

هذه التفسيرات لم ترد ببال الطفلة ابنة السنوات التسع . ابتكرها الآن . وأنا أدون هذه الملاحظات في محاولة لتذكّر دقائق أفلتت ، وكادت تندثر تحت عجلات الأيام المتشابكة » .

* * *

تسخرين مني يا رانية !

لم أعهدك على تلك الصورة من الإيمان . ويوم دعوتك في ذلك النهار لنمضي معاً الى الكنيسة ، ونستمع الى صلاة الأحد ، رفضتِ بابتسامتك الغامضة ، وقلتِ بكل بساطة : لا اعرف كنيسة في بيروت .

قلتُ لك بسذاجة : نذهب الى كنيستنا ، حيث اعتدت ان ارافق العائلة . وأصرّيت على موقفك . ولم أُلحّ . ثم كانت مفاجأتي بك في اليوم التالي ، حين دار البحث حول وجود الله ، أو عدمه . ووقفتِ بكل جرأة مع صف الملحديـــن .

لم أصدق ما سمعته منك . وتابعت عبارتك : « لا أستطيع ان اؤمن بإله يرحم أو ينتقم ، يرضى ويسخط ، يتصرّف مثل أيّ سيّد إقطاعي في مزرعة العبيد » .

ـ وكيف تصفين لنا الهك ؟

كان ذلك سؤال مروان وأعتقد أنه صُدم مثلي ... أم انه كان يتقبل كل ما تتفوّهين به ، دون رفض ، أو استغراب !.

وعاد صوتك يؤكد بكل ثقة :

– لا يجوز ان يكون إلهاً ذاك الذي تنطبق عليه صفاتنا البشرية . إلهي لا أستطيع تحديده في كلام أو صفات معيّنة ، لا أقوى على حصره او تصوّره ضمن نطاق دائرتي البشريّة المحدّدة .

– ولكن يجب أن تؤمني بشيء ؟ فبماذا تؤمنين ؟

أحرجك مروان ، ولم تكشفي اوراقك كلّها ، بل عدتِ الى الغرابة والغمـــوض :

– لماذا لا يكون الله فقط ، خارج اي تحديد .

– ولا علاقة له بالوجود ؟

– لنقل إنه علّة الوجود وسببه ، مصدر كل خليقة ، ومنتهى كل شيء .

– وهذا بذاته تحديد . أليس كذلك ؟

– ربما . لكنه غير التحديد الذي رسمتم .

وطال جدالنا في تلك الصبيحة ، وكان امتداداً لمناقشة حامية في صف الفلسفة . وكنا ممتلئين حماسة ، وكل واحد يتقدم بنظرية ، او مجموعة آراء يحاول أن يثبت من خلالها تفوّقه ، دون ان يستمع الى الآخرين .

وحين لقيت مروان في اليوم التالي ، خلال غيابك . تابعنا مناقشة جانبية ، وقال لي بصراحة : إن رانية تخفي من شخصيتها أكثر ممّا تظهر ، إنها بئر عميقة .... ليتها تترك دراسة التاريخ وتنصرف الى الفلسفة ، فهذا ميدانها ، وفيه لا بد من أن تجيد وتبدع .

وابتسمتِ وأنا أردّد على مسمعك رأي مروان : « فلسفتي تنبع من

ذاتي ، لا من مجاري الأنهار الخارجية . ودراسة التاريخ لا تعيق النموّ في الفلسفة ، متى وجدت البذرة الصالحة » .

قلتُ لك : إن مروان يريدك ان تستقرّي ، أن تتصالحي مع نفسك . هذا ما فهمت من كلامه .

وانتفضتِ :

ــ ولماذا يريدني أن أستقرّ ؟ لماذا يستعجل نهايتي ؟

ثم سارعتِ الى تغيير مجرى الحديث ؛ كانت مشاغل أخرى قد تدخّلت بيننا وبين الموضوع : الامتحان القريب .... وتراكم الدروس . وكان الشوق للتصارع في حلبة الأفكار قد خبا ، وانطفأت نيرانه أمام تدرّج الوقائع الآنية .

وعدنا فالتقينا في النهار ذاته ، حول طاولة في مشرب الجامعة مع مروان وزميله بسام التاجي .

أذكر جيداً ، كيف اقتلع بسام نفسه من موجة الحديث ، ليوجّه كلامه إليك ، بجرأة تقرب من الوقاحة :

ــ والأخت رانية تتخصّص في دراسة اللاهوت ؟

كان صوته ساخراً مرحاً . وأجفلتُ ولم ادرِ كيف أتلقّف الحجر ، قبل أن يرتمي فوق صفحة البحيرة الهادئة .

ورفعتِ اليه عينيك بتهذيب مصحّحة :

ــ كلا .... اختصاصي سيكون في التاريخ .

- عفواً اذن . ولا يجوز ان نحكم على الناس من المظهر الخارجي ..

- ومظهري أوحى إليك بنوع الدراسة ؟ هذا طريف ....

- لأول وهلة ، حسبتكِ مبشرة انكليزية .

- هذا مديح لا أستحقه .

أغرزتِ السكين في فمه ، وأنقذتِني . وكنت أخشى عليك من الانكسار ، وإخالك أرقّ من ورقة السجائر . وها أنت تجابهينه بعنفوان ، وتستنفرين طاقاتك المخبأة وتنتصرين عليه .

« برافـــو » .

كدت أصرخ فرحة . وعاد يطرق ذاكرتي حديثك يوم الأحد السابق ، عن زهدك الطبيعي بكل ما يتعلق بالمظهر الخارجي . والآن « جاء من يعرفك يا زعرور » وبسام غير مروان ، وترقبتُ أن تشهد حلقتنا بعد تلك الجلسة ، سلسلة من المجادلات الحامية . انتظرت أن يؤثر ذلك على مروان ، خاصة وانه لا يطيق ان يقسو احدهم عليك ويطلب من الجميع ان يعاملوك كمـــا يعاملك ، بتقدير واحترام ، وتأليه .

لقد أثبتتِ في تلك الجلسة نجاحك .

رفعتِ جداراً كثيفاً بين حقيقتك الذاتية وما يطل منك على شرفة الوجود . وكنتِ تجهلين أنه مهما بلغت كثافة الجدار ، وقست حجارته ، فسوف تبقى هناك نافذة الى الداخل ، من تينك العينين الصافيتين . بُحيرة الهدوء اللذي لا يعكره هياج الرياح الطارئة .

عاد بسام يهرف :

– والأخت سهام ، تتخصّص في الفنون الجميلة ؟

ومرة أخرى كان جوابك مفحماً :

– اختصاصها في ماهيتك الحالية ، في عمل تقوم به حضرتك دون أي اختصاص . سهام ستكون صحافية .

وقهقه . أعجبه الجواب ، وارتفع صدى قهقهاته ، فلفتَ إلينا الانظار .

كان هو صوتنا العالي ، المختلج بكل النبرات المخنوقة .

بعدها ، حاول مروان ان يعتذر عن سخرية رفيقه . وأكّدت له ان صحبة بسام طريفة ، ملذّة . به تتم اللعبة ، وتقف « السيبة » على أربع ارجل . وكنت أتوقع أن تشتعل نار الغيرة في صدر مروان ، وأقف اراقب تطوّر الامور ... ربما لصالحي .

كم كنتُ أنانية ، وغبية ! .

وقفتُ معك ، نراقبهما يبتعدان . كنت انت شاردة ، وعيناي تلاحقان خطوات مروان وافكاري تحاول ان تقتفي آثار افكاره .

ودّعتك عند باب الجامعة ، وفي صدري غليان ، وعواصف تتخبّط بجنون .. وكنتِ بعيدة عن هواجسي وكأنّك في كوكب آخر . وتمنيت في تلك اللحظة ، لو تستمر رحلتك ... لو يذوب وجودك ، ويبقى لي مروان .

وكم كنت مخطئة ، كم كنت مخطئة !...

كيف يتعلم المرء بعد فوات الأوان اموراً كان من الضروري أن يدركها ، ليتوسّل بها سبيله الى السعادة !...

ولو كانت هذه الاوراق بين يديّ آنذاك ، لتبدّلت أمور كثيرة نعجز عن تحريكها الآن .

أو كان بالامكان مساعدتك ؟ أو كانت تلك نيتي ؟

أستغفرك يا رانية !..

كنت استخدمتها ذريعة للانفراد بمروان ، أقرأ له حكاياتك ، وأترك الشرح والتعليق . وينصرف هو الى صمته الذاهل . ثم ينظر الي بعينين تغشاهما الدمـــوع .

كانت لمروان المقدرة على البكاء في اللحظات العاطفية ، ويُقرّبُه ذلك مـــني .

اعترافه بالضعف يصبح وسيلتي للوصول اليه . وكنت استقبلت دموعه بنظرة حنان . وصدر متفهم رحب ، وأخذت رأسه المجهد بين ذراعيّ وحضنته طويلاً . وحين ينهض ، يجد نفسه قريباً مني ... حبيبي أنا عن طريقك .... يا للفكرة الرومنطيقية !....

إنه حلم لم يتحقق . وكان من المعقول ان أخسر مروان الى الابد . أتصوّره يأخذ الاوراق ، فيذرّيها وهو يردد : هراء . هذر مراهقة ، ولا يجوز ان نغذّيه في صدر رانية . من واجبنا إنقاذها من ماضيها ، هذا كل شي .

واسأله بدوري : لكن هذا يتطلب شيئاً من التجاوب من ناحيتها ... أليس كذلك ؟

ـ التجاوب ؟ هذا يأتي فيما بعد .

ويهرب مني. وألمحه يركض في باحات الجامعة، ثم في الشارع ، ويقصد غرفتك ... ويتخلّى عن تعقّله وهدوئه ، فيذعن الى فكرة خرقاء ؛ إنقاذك من براثن الوحش ، ويحملك الى ركن منعزل ، حيثُ يُغرقك في البوح ، والاقناع ، والتهديد :

ــ لماذا أخفيت تلك الاسرار ؟ إنك تسخرين مني !

ــ وما دخلك في حياتي ؟

تسألينه بهدوء ، ببرود وبشيء من الذهول .

ــ باسم المحبة لي الحق في هذا التدخل .

ــ ولكن المحبة لا تقــف من جانب واحد . ولستُ على استعداد للعطــاء .

ــ لكنكِ على استعداد للتعذيب ؟

ــ لا أقصد تعذيب احد ، ولم أفعل ما يوجب هذا الكلام .

ــ رانية ، الا تشعرين ؟ هل فقدتِ كلّ احساس بالانوثة ؟ لا أصدق . عيناك تنبئان بغير ذلك ، هل تريدين مرآة لتقنعي ؟

ــ أحياناً المظهر الخارجي يغشّ . ألم تسمع صديقك بسام ؟ ظنّني مبشرة ، وأنا أبعد الناس عن الايمان .

ــ إنك ابعد الناس عن الواقع . هذا ما تقصدين قوله ، تحيطين نفسك بالأشباح ، وتتصارعين معها ليلاً نهاراً ، كما كان « دون كيشوت » يصارع

فرسان الوهم . وأنا سأظل ألاحقك ، حتى أعيدك الى الواقع . لن أتخلى عنك ، لن أترك لك لحظة هدوء بال . خذي علماً بذلك .

وترفعين وجهك بأنفة :

ـ أعتقد اننا انتهينا ، وعليّ ان ارجع الى أعمالي .

هكذا تقطعينه ، وتخرجين .

كانت لك تلك المقدرة الآلية على اجتزاز نفسك وسلخها من شباك الآخرين ، وتركهم يتخبّطون في بحر من الشكوك .

أوْ كان يمكن أن يكون للصورة وجه آخر : تخفضين رأسك أمام مروان بصمت . وتكرّ دمعاتك باستسلام فيأخذ يدك بين يديه ، يحميها ويبللها بدموع عينيه ، ثم يرفعها الى فمه ، مقبّلاً . وتبقى يدك مستسلمة لحرارة أنفاسه ، وتذيب قبلاته صقيع الهيكل الداخلي .

ويعترف لك بصراحة :

ـ أحبك يا رانية . وسوف أفعل المستحيل لإحياء الحب في قلبك . وتعقل المفاجأة لسانك؛ فتحاولين الهرب . ويسدّ عليك المنافذ ، فتعلقين في الفخّ ، وتذيب حرارة الإيمان وا لحبّ الصنم الجليدي في صدرك ، وتخضعين . تجدين نفسك ، وتنتهي مشكلتنا الثلاثية.

وأنا لا أخشى على نفسي مغبّة العاقبة . كان باستطاعتي ان أخلعه من وجودي كثوب ضيّق يعيق مجرى الدم في عروقي . هذه مهارتي ، وبها أتفوق عليك . أنت تجمعين الذكريات في حجرات مظلمة ، وأقبية رطبة ، وأنا أطيّرها كالفراشات ، وأستريح .

ولو انتهت الامور كما اشتهيتْ لك ، لكنتِ الآن تنعمين في منزل زوجي سعيد . ولك أطفال ، وزوج محب ، وأزورك في أويقات الهناء .. فنجلس نتذاكر ، نحيي اللحظات النائمة ، دون شعور بالمرارة والألم .

ولكنك ظللت عند إصرارك ؛ الاستقرار كان بالنسبة اليك ، بداية النهاية . وها أنك حتى الآن ، تمارسين الهرب ، وتجلدين نفسك بسياط التعذيب ، وتستمرئين طعم الدموع المالحة .

ومروان ، ذلك الكوكب الذي درنا في فلكه دورات كثيرة ، ظننتُه انتهى . استهلكته ، اصبح حلماً ، وحكاية تحكى .

هكذا هو بالنسبة إليّ على الأقل . وحسبت أنك لم تفتحي له الباب على الاطلاق . ولم تدخليه لحظة واحدة الى محراب ذاتك .

قبل يومين سمعت صوته مسجلاً من الاذاعة ... كان يلقي خطاباً أثناء حفل سياسي . أصغيت اليه بلهفة ، ولكن دون أن يخالجني شعور بالندم ، او الالم ، أو النقمة .

أحسسته شطراً من أويقات ساذجة ، دبّت على صفحة حياتي ، ثم انزلقت كقطرات المطر ، فوق جسم مكوّر .

وأعترف إني أعجبت بصوته الواثق ونبراته العذبة ، وإيمانه بنفسه . ذلك الايمان الذي أوصله الى حيث هو ليكون واحداً من مخطّطي مصير وطنه .

تراه سيصدق أني أحببته طوال تلك السنوات ، بصمت ، وكبرياء ؟ تراه يكترث ؟ أم أن السياسة رفعت حاجزاً بينه وبين الماضي ؟

تساؤلات ... محض تساؤلات ، تنتهي على هذه الورقة . هذياناً عذباً

يريح النفس . وكثيراً ما يكون الهذيان مهربنا ، حلم اليقظة الذي ينتشلنا من جفاف الواقـــع .

غريبة هي الحياة . وأغرب منها تشابك العواطف والعلاقات ، وتعانق آثار الاقدام فوق سبل تنطوي وتغيب عن البصائر ، وتغرق في هوّة النسيان .

انتقلت إليّ ، يا رانية ، عدوى تأملاتك . مثلك افكر في هذه اللحظات ، ومن موردك أستقي . وقد يكون ذلك بفعل أوراقك المسحورة ، التي تشدّنا بحبال حاولنا ان نقطعها . وتجعلنا نقف متجاورتين ، مثل الجدار والعوسجة تتكىء الواحدة على ساعد رفيقتها ... ولكن قـــولي لي ، بربك ، من منـــا العوسجة ، وأيّنا الجدار ؟ .

* * *

« سوف تجدين صعوبة في إعادة ترتيب هذه الاوراق ، يا بنيّتي المسكينة . ها اني أذري فوقها كلماتي ، أبعثرها كما تخطر ببالي ، دون تنظيم ، وأترك لك مهمة جمعها . فحياتي لم تكن منظّمة ، كذلك كانت أيامي وما تزال .

لماذا أتصوّرك بقربي ، أفترض وجودك ملاصقاً لكياني ؟ أشتاقه ، وأحن اليه ؟ ... لا أدري . أهو الحنين الى تلك الطفولة السادرة ؟

أتصور هذه الكلمات تنتعش وتحيا حالمـــا تقفز فوقها عيناك . ويعالجها فهمك وإدراكك .

أنا ، سيكون لي طفلة ؟ ..

ربما أدفع همساتي لتلك الصغيرة التي قفزت فوق مرحلة الطفولة ، دون أن تتلذّذ بنعمها . إسمعي مغامرتها الصغيرة هذه :

عمرها عشر سنوات . الأبواب موصدة في وجهها . الكبار يضيّقون عليها ، ويشدّون الأحزمة حول جسدها الصغير ، يسكبونه في قالب جامد لا تقوى على تحطيمه ، والخروج منه .

في ذلك الصباح ، شاءت ان تتمرّد ... اغتنمت فرصة غياب والدها ونمرود ، لقد خرجا معاً الى الصيد . وأمها مشغولة في اعمال المنزل .

انسلّت من البيت على روؤس أصابعها ، وتركت الباب مشرعاً .

كان في زاوية معزولة من القرية ، منزل صغير ، تعرّش فوق سطحه دالية ، وتقطنه امرأة متوحّدة ، يتجنّبها الناس ، ويشيرون إليها بالأصابع .

كان اسمها « روزينا » .

صادفتُها قبل أيام ، في الطريق . وتوقّفت تسأل من أكون ؟ ابنة من ؟ ثم دعتني لزيارتها .

لم أجرؤ أن أخبر أمي . كنت أعرف جوابها سلفاً . وكان من الطبيعي أن ترفع في وجهي الحواجز ، وتشدّد الرقابة عليّ .

وشوق الصغار لا يستفيق لشيء كما يتوثّب أمام وجه غامض واسطورة تمشي على قدمين .

واسم روزينا ، كان يعيش بيننا مثل أسطورة غنية بالتفاصيل الغريبة . كان الخريف الذهبي يفرش دربي بالأوراق الصفراء ، والأعشاب الذاوية ؛ والغبار يتطاير ، ويغطّي حذائي ، وقدميّ ، وقلبي يقفز بين أضلعي ابتهاجاً .

كنت أشبه بعصفور هارب من القفص .

استقبلتني روزينا على عتبة الباب . كانت وحيدة مثلها دائماً ، وتذكّرت ثرثرة الناس عنها ، وتوحّشها ، وهربها من المجتمع .

أمسكتني بيدي وقادتني الى كوخها المظلم . كانت نافذته مغلقة ، والنور يتسرب عبر طاقة صغيرة من جهة الغرب .

ـ أهلاً بك يا رانية .

بدّدت مخاوفي بلمسات يديها ، راحت تمرّرهما فوق شعري ، ووجهي :

ـ أنت حلوة ولطيفة .

أحنيتُ رأسي خجلاً . وظلّت عيناي تتنقلان بين جدران الغرفة الضيّقة . لم يكن فيها من الفَرش ما يستحق الذكر ؛ مقعد طويل يغطيه بساط حائل الالوان . وفوق الجدران تتوزّع صور قديمة لأفراد عائلة تفرّقت بين غربة وموت . وكرسيان من الخيزران ، وطاولة صغيرة . وفي إحدى الزوايا ، صندوق مطعّم بالصَدَف . حوله أدوات المطبخ ، و« بابور » كاز . والى الجدار علّقت « نملية » تحتوي أطباقاً صغيرة مملوءة بالمأكولات القروية المحفوظة .

قامت الى تلك الخزانة ، وتناولت منها طبقاً فيه زبيب وجوز ، وضعته أمامي وجلست تتأملني :

ـ جئت اذن . هل أخبرتِ أمك بذلك ؟

ـ نعـــم .

كذبت عليها ببساطة . ولم أشعر بوخز الضمير .

وعادت تسألني عن المدرسة والعائلة دون أن تستثني نمرود .

وكانت أجوبتي مقتضبه ، وغير مشجعة ، ولاحظت أن عينيها تحتفظان بسؤال بعيد ما يكاد يطلّ حتى يختفي .

ورحت أتساءل بيني وبين نفسي عن سرّ المرأة ، وتوحّدها ، وانغلاقها على ذاتها . ولكني لم أجرؤ أن أبوح بخوالج صدري .

أنقذتني هي من تخبطي حين قامت الى الصندوق الثمين ، وفتحته :

– تعالي تفرّجي .

إنه صندوق الكنز . مجمع الاسرار . وهي لا تفتحه للأعين الفضولية . وتخصّني وحدي بهذا الإكرام ! .

تناولت يداها محتويات الصندوق وراحتا تفرشانها امام عينيّ : ثوب زفاف ، مطرّز بخيوط فضّية ، وحذاء يليق بقدمي أميرة من اميرات الجن . واثواب أخرى جميلة ، وبياض مطرّز ، ومشالح حريرية .

جهاز عروس .

ثم غارت يداها في عمق الصندوق ، وأخرجتا علبة الجواهر : أساور وعقود ، وأقراط قديمـــة الصياغة ، جميلة الصنع .

وبعد تردّد امتدت يدها الى زاوية أخرى وخرجت بصندوق ملفوف بقماش من المخمل الحمري . فكّرت : هذا الصندوق يضمّ جوهرة نادرة ولا شك ، وتسارعت دقّات قلبي ، وهفّت الى أنفي رائحة العتق .

كان الصندوق يضمّ رزمة أوراق صفراء ، امتلأت صفحاتها بكلمات كُتبت بحبر أخضر .

– وما علاقة هذه الأوراق بجهاز العرس ؟

سمعتُني أسأل غضباً عني .

وضعت إصبعها فوق شفتيها تدعوني لأصمت . ثم تركت الصندوق مفتوحاً ، والأغراض مبعثرة حوله ، وجلست القرفصاء ، تعيد تنسيق الأوراق ، وقد تدفّق بين أناملها حنوّ مفاجيء ، وأحسستها تنسلخ عن اللحظة

التي تجمعنا ؛ فلم تعد تشعر بوجودي ، وراحت تقرأ وتحدّث نفسها ... ثم ، وكأنّها استفاقت من سُبات عميق ، عادت اليّ تكلمني بصوت مبحوح :

ـ إنّه كنزي الصغير ، كلّ ما بقي من ذكراه .

ـ أهو ؟ ...

لم تدعني أكمل السؤال . راحت كلماتها تتدفّق كالطوفان :

ـ إذن ، أنت لا تعرفين الحكاية . لم تخبرك امك . أعرف سلمى لا تحبّ الثرثرة : هي غير نسوة القرية . وقد تكون نسيت . من يذكر هذه الأمور بعد مرور نصف قرن ؟ من يهتم بروزينا المسكينة ؟ صنّفوني مجنونة ، وانتهى الامر . وضعوا صليباً فوق بابي ، وحرّموا على أقدامهم وطء عتبتي . كلهم اشتركوا في وأد روزينا ، جميلة الجميلات وقبلة أنظار الشباب .

لا تنظري الى وجهي الآن ، الزمن لا يرحم يا بنيتي . الزمن لا يرحم .

ـ ولكن الزمن أعجز من أن يفسد الجواهر الأصلية .

هكذا فكرت وأنا اعيد تأمّل وجهها الصبوح : الجبين العريض خطّت فوقه الأيام رسالتها ، وتركتها أثلاماً مستقيمة . والعينان العسليتان تحتفظان بالألق الذكي ، والخدّان المرتفعان والأنف الأشمّ ، وتحته الفم الحساس . ثم تلك القامة الطويلة الناحلة .

لا . ان الخالق تأنّى وهو يصنع هذا الاناء الجميل .

أما الشعر الرمادي ، فيحتفظ بتسريحة ، درجت في مطلع هذا القرن : غرة الفنج فوق الجبين ، و« الشينيون » المرفوع تاجاً فوق الرأس .

قلتُ لها بخجل :

– أنت جميلة اليوم كما في الماضي . ولكن أخبريني ، لماذا لم تتمّ الفرحة ؟

– القدر يارانية . إنه أقوى من الانسان .

نحن نبني القصور ، ويمدّ أصابعه بتسلّط ، فإما أن يزيد البناء ارتفاعاً ، أو يهدمه ، ويحيله رماداً . وهذا ما فعله بي .

كان فارساً جميلاً ، ذلك الشاب الذي أطلّ على قريتنا ، وأنا في السادسة عشرة من عمري .

جاء فوق صهوة جواده يبحث عن فتاة الأحلام . ودلّوه على دارنا . وكانت أجمل دار في الجوار . استقبله ابي بالترحيب ، وأجلسه في صدر الدار ، ولما اطمأن اليه دعاني لأقدم القهوة .

كيف أصف لك تلك اللحظات البعيدة . يمكن تقرأينها في الروايات . كان وسيماً قوي البنية ، وجريئاً . وكنت في السادسة عشرة من عمري ، تضجّ فيّ الحياة بكل مرحها وعطاياها . وكان حباً من النظرة الاولى ، إنما لم يفسح لنا المجال لتبادل الآراء . تمّ الاتفاق بينه وبين أهلي لسعادتي وهنائي . وعشت بعدها اياماً من الشوق والترقّب والاحلام .

ثم صمتت روزينا ، وكأنها عادت الى أيامها الماضية تلك ، تستعرض دقائقها . وكان الشوق يرتفع في صدري ، وأنا انتظر نهاية الحكاية . وأتمنّى في الوقت ذاته ، لو أنّها لا تنتهي . لو أبقى هنا ، مع هذه الساحرة ، تحملني على أجنحتها البراقة الى عوالمها الخفية .

ورحتُ استحثّها :

ـ وماذا بعد ؟

وتابعت :

« كان يطلّ من خلف التلّة المواجهة للضيعة ، مرّتين في الاسبوع ، وأنتظر إطلالته ، فوق أكوام السعادة والمرح .

كان من ضيعة « الشمّار » شيخ شباب الضيعة ، واكبر الملاكين فيها . وقد سمح له الوقت بالتعلم ، فنال درجة عالية من مدارس بيروت . وكان له أسلوب جميل في الكتابة . وكلما عاد بعد غيبة ، يحمل رسالة ، ويدفعها اليّ لأقرأ .

كانت الرسائل أسرارنا الصغيرة . قوارير العطر وخلاصة العاطفة . وفي يوم : كان عائداً من زيارتنا ، بعدما حدّدنا موعد الزفاف ، وباتت تفصلنا عنه أيام بل ساعات ... أجل كان راجعاً ، ووقفت أودعه من خلف النافذة ، حتى توارى هناك ، عند « تلة الخنشار » . وكانت تلك آخر لمحة سجلها بصري .

فهمتِ ما أعني ؟ .. لم يرجع ، ولم يتم الزفاف » .

ـ والسبب ؟

سألتها بلهفة ؛ فردّت بعد صمت لحظات :

« الحصان . لا لأنه لم يكن يجيد الركوب . كان أشهر خيّال في المنطقة ، ولكنه القدر .

وبعد ذلك انطويت على نفسي ، طلّقت الحياة ، وغرقت في اليأس .

وربما في الجنون ، خاصة في الفترة التالية للمأساة . ومن بعده أقسمت ألا أتزوّج . مسكين أبي مات بهذه الحسرة . وكانت امي قد سبقته ، ولي من العمر سنة واحدة .

وهكذا تقلّص ظلّ الأصدقاء من حول دارنا ، مع تقلّص ظلّ الجاه والثروة » .

– ولكن الناس ، لماذا لا يزورونك ؟

– لاني أوصدت دونهم ابواب قلبي وبيتي . اعتبروني شاذة ، مجنونة . صنّفوني واستراحوا .

– ربما كان الحق عليك .

شعرت أن عبارتي وخزتها . فمسحتْ دمعة تدحرجت فوق خدها وأجابت باستسلام :

« لست بحاجة اليهم . الوحدة تسلّيني . طبعاً لا أعيش في الاحلام وفي استعادة دقائق الماضي .

الماضي انقضى ، ولكن الانسان يعتاد حياة الوحدة ، ويصل إلى يوم لا يطيق فيه تدخل العوالم الخارجية .. هل تفهمين ؟

هززت رأسي موكّدة فهمي ؛ وكنت في الواقع ، لا أفقه حرفاً من أقوالها ، إنما طغى الحزن على نفسي ، وبتّ أقرب اليها من أي انسان . تمنّيت لو استطيع أن أساعدها في شيء ، وصارحتها بنيّتي ، فربتت خدي مبتسمة :

– عودي الى زيارتي مرة اخرى ، بل مرات .

ـ سأحاول .

وعدتها ولم أهتم بطريقة التنفيذ . وقامت هي الى صندوقها ، تلقمه الكنوز المبعثرة ، وتعيد ترتيبه ، وإغلاقه . ثم اقتربت من مقعدي وتناولت وجهي بين يديها ، وراحت تتأمله :

ـ هذا الوجه ، ماذا يخبيء له القدر ؟ .. السعادة ؟ ام الألم والمرارة ؟ قولي ، يا رانية ، هل أعجبتك الحكاية ؟

ـ كثيراً .

ـ هل صدّقت كل كلمة ؟

ـ اجل . ولماذا لا أصدق ؟ ...

وانفجرتْ بالضحك .

راحت تقهقه بفجور ، وانقلب وجهها الهادىء القسمات ، الى بركان يتأجج بالصخب :

« كذبت عليك . شئت ان اسلّيك بحكاية مشوقة . الصغار يحبون الحكايات. هل تفهمين ؟ لم يكن لي يوماً حبيب ، ولا فارس أحلام . اخترعت الحكاية لاسلّي نفسي » .

فغرت فمي بدهشة ، وتمتمت بسذاجة :

ـ والجهاز ... وثوب الزفاف ؟...

« اعددت هذا كله ، لاكمل الرواية . الناس على حق فيما يقولون .

أنا مجنونة ، ورثت العاهة عن امي . هي ماتت واستراحت ، وبقيت انا اخبط في قفار هذا الوجود . من يتزوج ابنة المجنونة ؟...

كان الجميع يعرفون ، ويهرّبون اولادهم من طريقي . وكنت أحلم بشاب غريب ، يهبط علي في ليلة ظلماء ، ويخطفني ، ويحملني الى عالم بعيد، بعيد ، لأعيش معه في بيت سعيد . انتظرته طويلاً ، ولم يأت .. اعددت نفسي منذ تفتّح وعيي ، وكان الآخرون يسدّون عليه الطرق .

لا . في البدء ، لم أكن مجنونة ، كنت فتاة عاقلة ، وجميلة ، ولكن الخوف ظلّ مسلطاً فوق رأسي مثل السيف . حتى سقط في النهاية واجتزّ الحدّ الفاصل بين العقل والجنون ، وطرحني في هذا الكوخ المنعزل .

لقد تنبأوا لي بان أصبح مثل امي ، وصدقت النبوءة . هي ماتت واستراحت وأنا ، وفرّني الموت لنهش الأنياب الشرسة » .

وارتمت محدثتي بقربي ، وراحت تجهش بالبكاء .

لم أدر ماذا افعل وكيف اتصرّف . تملّكني الخوف ورفع فوق رأسي علامة الخطر . ماذا لو مدّت يديها الى عنقي وخنقتني في هذه اللحظة ؟ ماذا تقول امي لو علمت بزيارتي ؟

نفضت ثيابي ، ووقفت :

ـ اسمحي لي أن أعود . ربما افتقدتني امي ، أطلتُ الغيبة .

ولم تجب .

كانت قد رحلتْ عني . ابتعدت في شبه غيبوبة ، واغتنمتُ الفرصة للخروج .

وفي الطريق رحت الفّق عذراً أقابل به امي اذا ما لامتني . وبالفعل استقبلتني مقطّبة الجبين :

ـ أين كنت ؟

ـ عند سميرة ؟

كذبتُ على امي. وشعرتُ بأن الجواب لم يقنعها. فتابعت تأنيبها وتهديدها :

ـ ماذا يقولُ أبوك لو علم بغيابك ؟

ولم أجب . دخلتُ غرفتي ومكثتُ فيها صامتة . ولم تعد امي الى استنطاقي . ربما خافت هي بدورها ان تكتشف الحقيقة ، فلجأتْ الى الصمت .

خبأتُ سرّي الصغير في صدري ، احتفظتُ بذكريـات لقائي مع روزينا ، وحين لجأتُ في المساء الى النوم ، كانت حكايتها تسيطر عليّ ، ونجاح مغامرتي في تلك الصبيحة يفتح لي درب التمرّد ، والانطلاق ، وتحدّي عالم الكبار الجبّار ، البعيد عن فهمي وادراكي » ..

* * *

يزداد انزلاق قدمي على حافة البئر المسحور ، وتشدّني حبال غامضة نحو تلك الزوايا الخفية المظلمة ؛ دهاليز شخصيتك يا رانية . بنيتِها معتمدة على تصاميم هندسية أشبه بتصاميم أوكار النمل : حجرة تلتفّ على حجرة ؛ ويعتقد الداخل بأنه في نهاية المطاف حين يكتشف باباً جديداً يدعوه للدخول .

وقفنا نودّع عاماً دراسياً مضى . انتهت الامتحانات . وبدأنا نبحث مشاريع الإجازة .

بالنسبة اليّ ، كان الموضوع لا يحتاج الى التفكير ؛ كنتُ مستسلمة الى سحر البحر ، غارقة في حبه ، ولا أطيق عنه بعداً .

ـ وأنتِ ؟ سألَك مروان وهو يتعمّد العفوية .

ـ أنا لن آخذ إجازة . سأبقى في بيروت .

أثار جوابك دهشتي :

ـ إنك بحاجة إلى الراحة ، الى هواء الجبل الذي اعتدته .

وابتسمتِ بهدوء :

ـ كيف تحددين الراحة يا سهام ؟

راحتي تأتيني من هذه الكتب ، وغرقي في العمل، والا لظلت أعصابي مشدودة كأوتار نحاسية .

وانبثقت في خاطري فكرة جديدة :

ـ سنمضي معاً الى الشاطىء ، وأعلمك السباحة .

وكان مروانُ يصغي ، مطرقاً ، وقد علت جبينه سحابة همّ .

لن يستطيع البقاء في العاصمة . فهو مضطر الى العودة للتدريس في احد معاهد الجبل ، ليستطيع تأمين قسطه للعام المقبل .

استجمع جرأته ، وعاد الى السؤال :

ـ ولكن ، اين ستقيمين يا رانية ؟

وصرفتِ سؤاله بابتسامة غامضة ، وطرق اذني جوابك الساخر :

ـ سأكون في كل مكان ...

* * *

احداث مضت ...

ايام ، اشهر بل سنون ، مرّت ، اعتصر ذكرياتها في لحظات ، اسجلها كأنها حصيلة ثوان معدودات .

لاحظنا انك تتجنّبين الحديث عن القرية ، والعودة اليها . كان الماضي ثقلاً طرحته خلفك . وهربت . وظلّت حباله عالقة بأعقابك تجرينها خلفك ، وأنت تتظاهرين باللامبالاة .

وكنتِ بحاجة الى فهم نفسك ، لتستطيعي مواجهة المشكلة بدل الهرب منها . غير أنك لم تَنْشُدي يوماً الخلاص . وكنتِ تتمتعين بالعذاب ، والمعاناة التي تجعلك شهيدة مطاردة . ام اني اقسو عليك بإصدار حكم كهذا ؟

لا يهمّ الكلام الآن . والحكم مهما كان ، لن يؤثر عليك . انقضى الوقت . وارتفع الجدار دون نوافذ أو ابواب .

وطوى الزمن دفتره ، ليفتح صفحة جديدة لخريف جديد .

* * *

أقبل تشرين ، يمدّ الينا سواعد الانقاذ من خدر الصيف ، من ملل الصيف . يسحبنا من تحت بلاطة الجمود .

وعدنا نسرح في باحات الجامعة ، تظلّلنا أغصان الشربين والسرو وترقص أعيننا فوق زرقة المتوسط الصافية . ودبّت الحياة في مباني الجامعة . وأعشاش العصافير الدورية ومقاهي شارع الجامعة . وعاد مروان .

كان الصيف قد ترك قبلاته فوق جبينه وساعديه القويين ، فبدا لعيني اكثر نضجاً وأشهى رجولة .

كان يتمشى مع بسام قرب المدخل الرئيسي ، يتظاهر بالغرق في الحديث ، وعيناه على الباب .

وما ان رآني حتى هرع الي مسلّماً .

– سهام ... ألف مرحبا . كيف قضيت العطلة ؟

ولم يفوّت بسام الفرصة دون تعليق :

– أراك ترتدين جلد زنجية فاتنة الجمال .

شعرتُ برعشة تتمشى في خلايا جسدي . كان لوني بنّياً فاحماً ... لم يسبق ان استسلمت للشمس كما فعلت خلال تلك العطلة . ولا ادري اذا كان هناك دافع غير حب الرياضة والسباحة وراء تطرّفي ذاك .

تراني كنت افتعل الامور ، لاستّرعي انتباه مروان ؟ لا أذكر .

انما وعيي استفاق في تلك اللحظة ، ليواجه الصدمة . كانت عينا مروان تنظران من خلالي الى شيء آخر ، وتسألانني عنك ، دون كلام . وفسّر بسام صمته وكأنه يقرأ الحروف المتأرجحة بيننا :

– أين رانية ؟ .. ما تزال الحلقة تفتقد عنصرها الأهم ! .

– إنها راجعة دون شك ....

ثم توقفتُ .

لم استطع ان اتابع وأنا أرى وجه مروان يتفتح مثل بتلات الوردة .

ووصلتِ ، وقد تخلّت قدماك عن تردّدهما السابق .

دخلتِ من الباب واثقة ، جريئة الخطى ، ومسحت حلقتنا بابتسامة شاملة دون تمييز . ووقف مروان إزاءك أعجز من ان يخفي سعادته . راح يتأمل دقائق وجهك ، ويلاحظ كما لاحظت أنـا ، نحولاً وشحوباً لا يتناسبان مع فصل الصيف :

– اغلب الظن انك لم تأخذي يوم اجازة ... تبدين كأنك خارجة من امتحان رهيب .

وكشحتِ ضباب الشك بابتسامة :

ـ كنتُ متوعكة في الأيام الاخيرة ، ربما بسبب الرطوبة واشتداد الحرّ .

لم يكن الكلام معبّراً عن واقع ما اعترانا في تلك اللحظات .

بسام يثرثر ، ويخبر عن ذكريات رحلته الاوروبية ، ومروان غارق في الصمت ، يجتر خوالج أفكاره ، وربما يحسّ ان المشهد ظلّ ناقصاً ، وسلامه عليك لم يرده بهذا الفتور . وانا ، كنت استعجل اللحظات ، لأختلي بك ، وأوجز لك ما جرى منذ افترقنا .

لقد شعرتُ وانا اعانقك بعد فراقنا الطويل ، أني افتقدتك اكثر مما حسبت . وكنت سعيدة بلقائك ومحتاجة الى رفقتك .

كان علينا في تلك الايام القليلة من بداية عامنا الدراسي أن نقرر نوع الاختصاص الذي سنختاره . وكنتِ انتِ مصرّة على التاريخ ، بينما تابعتُ دراسة الادب ، الى جانب مواد اضافية تساعدني في عملي الصحفي .

كيف وقفنا هناك ، عند مفترق الأيام ، نخطّط السبل التي سنتابع مسيرنا فوقها ، ونسينا ان الحياة هي المخطّط الاكبر ، والقدر يحمل عصاه فوق رؤوسنا ، ويمدّها حين يشاء الى الزوايا الحميمة في نفوسنا ، فيبدّل ما يشاء ويقلب الامور كما يشتهي ، ونمضي نحن في خضوعنا ، حتى في أعنف حالات التمرّد والرفض .

كيف أتذكر بهذا الوضوح أحداث يوم بالذات ، وأنسى تفاصيل أيام بل أشهر وسنوات ، عبرت من خلال عيني ، تاركة غبارها فوق الجفون ! ..

* * *

كان الطلاب ينتظرون بفارغ الصبر مساء ذلك اليوم ، وحفلة التعارف

التقليدية التي تُقام في القاعة الرئيسية . وكان مروان يعول على تلك الليلة ، ووجّه دعوته الينا :

ـ سنرافق اذن .

كان قد اتخذ القرار بينه وبين نفسه .

أنضج الفكرة ، وما عليه الا ان يجسّ النبض .

لم أجبه قبل ان اسمع رأيك . ولكنك رفضت .

حاولت أن ابدّل موقفك وأثير في نفسك الشوق الى تلك الامسية الحالمة .

وعاد جوابك يصفعني ببرودة :

ـ لا أستطيع الحضور .

وشعرتُ في نفسي ميلاً الى التحدّي .

كنتِ قوية في قولك وفعلك . ارادتك من حديد ، بينما بقيتُ أتوكأ على آراء الآخرين . ونضحت خوالج نفسي في كلمات مختصرة :

ـ انا مستعدة لاكون رفيقة السهرة يا مروان .

رضي ... كيف ؟ ولماذا ؟ لا أدري .

ربما الخجل . طبيعته التي ترفض الاساءة كانت دافعه الى القبول . ولم تخالج ملامحه مسحة مرح . أجابني باستسلام حزين :

ـ لي الشرف بهذه الرفقة .

توقعتُ ان يأكل الندم قلبك . ولكن خطّاً واحداً من خطوط وجهك لم يختلج . كنتِ مثل بحيرة هادئة ، وصفاء البحر الأزرق ينعكس في عينيك ، وتلك البسمة الغامضة ، التي تحمل شتى المعاني ، تمسح وجهك وشفتيك .

اذكر كل لحظة من تلك الامسية الرائعة . لقد مرّت فوق غربال الزمن ، وبقيت لي حباتها المختارة .

كانت ليلة مقمرة ، ونسائم الخريف تهيمن على اجواء بيروت وقلوبنا مفعمة بالتوقّع وصدورنا عارمة بالأحلام .

أقبلتُ بكامل زينتي ، ودلفت الى قاعة الاحتفال بخطى واثقة ، ونظرات لا تخلو من الاعتداد بالنفس والتحدّي . كانت المناسبة تحمل اليّ معنى واحداً ؛ لقاء مروان .

كنتُ قد تدرّعت بكل ما عندي من أسلحة ، لكسب المعركة . وحسبت أني ظفرت بنصف الجولة وأنا أرى عينيه ترتفعان إليّ باعجاب ، فينسى المكان ، وزمرة الرفاق ويهرع الى جانبي بعبارات الثناء :

ـ إنك رائعة .

وفكرتُ :

إذن هو لا يختلف عن الآخرين . منظر الدمية بالثياب الجميلة ، يثيره ، يدهشه ، ويعيده طفلاً راضخاً وأليفاً .

كانت القاعة تتموّج بالالوان . وقد ارتفعت ألحان الموسيقى أسلاكاً تشدّ الناس بعضهم الى بعض ، وتقرّب المسافات . وشعرت اني ارتفع معه فوق

ذلك البحر الطاغي ، فنؤلف وحدةً مستقلة ، تشدّ أجزاءها روابط الحب ، والالفة والتفاهم العميق .

اقترب بسام يعكّر عليّ صفو تأملاتي ، وهفّت الى أنفي نسمة عطره الخاص . وحطّت عيناه على وجه مروان تتفحّصانه بخبث :

-- صديقتنا رانية لم تحضر . هذه الفتاة متخلّفة عن عصرها . كان يمكنها أن تجد السعادة لو وُلدت في القرن الماضي .

ولم يعلّق مروان بحرف . وتابع بسّام ملاحظاته هذه المرّة بإطلاق تصفيرة الإعجاب ، فحاولت ردعه بلطف :

ـ جرأتك تزعجني .

وضحك . غرقت عيناه في ماء الخبث ثم تابع :

ـ لا يبدو عليك أثر الانزعاج . كنتُ دائماً أقول إن فتيات بيروت ينافسن الباريسيات في الذوق والأناقة وقد جئتِ تؤكّدين قولي .

لم أكن مستعدة لمتابعة هذيانه . فتركته يهرف حتى أفرغ جعبته ، وأبعدتْه عنّا أنثى استعراضية أطلّت على القاعة ترتدي ثياباً غريبة ، فانطلق إليها دون استئذان . وتنفّست براحة .

وكان مروان في تلك الأثناء غارقاً في صمته ، ثم وكأنّه تنبّه لوجودي فجأة ، فأمسكني بيدي وخرجنا الى الشرفة .

وقفتُ هناك ، اسند ظهري الى الجدار ، وصخب القاعة يملأ اذني ، وأمامي صديقي ، صديقك ، يقف بثقة ، وقد تركّزت قدماه فوق الارض ،

وسرحت عيناه في خلايا الظلمة .

لم نكن بحاجة الى الكلام . كان قلبي يخفق كالطائر السجين ، والسعادة تتمشّى في عروقي ، وتنضح من مسامّ جسدي .

كنت أملكه لساعات او لبضع لحظات ، او هكذا اعتقدت حين مدّ ساعديه ، وطوّق خصري ، ودعاني الى الرقص .

لم نكن وحدنا فوق الشرفة ، ولكن العالم كلّه تحوّل في نظري الى ظلال باهتة ، ما عداه . وفجأة ، شعرت بنقطة ماء فاترة تسقط على يدي :

ــ ماذا ؟ مروان ، ما بك ؟

سأله قلبي . وأطبق الصمت شفتيّ .

إذن ، كنتُ وحدي أملك تلك اللحظات الحبلى بالنشوة ، وكان مروان يتألّم بصمت . ولجوءه اليّ لم يكن سوى هرب من فراغ غيابك .

تظاهرَ بمرح فجائي وراح يرافق لحن أغنية « غرباء حين نلتقي » .

وتركته مع مزاجه وأنا افكر : كم هي قصيرة لحظات الحب ... وهذه التجربة الفريدة يندر أن يختبرها اثنان في لحظة واحدة .

وتذكّرت أننا عدنا الى المسير في خطّين متلاحقين ، يحوّم فوقهما طيفك الهارب بين أشجار السرو الكئيب .

• ▪ ▪

عادت سهام من شرودها ، تتسلّى بتقليب الأوراق ، وتحسّ ان الحروف بين يديها ، تتحوّل الى محراث يشقّق قشرة التربة الخارجية ، ويغوص الى الاعماق ، فينبش من الذكريات ، مما شاءته أن يظلّ مدفوناً في الظلمة ، قابعاً في الزوايا الحميمة ، مُهْمَلاً منسياً . وشعرت في نفسها اصطراع عاملين : صوت يهدر في اذنيها واعداً ، مغرياً ، يدفعها الى متابعة تلك المغامرة . وآخر يردعها . يأمرها بان تحرق الأوراق ، أو تطويها وتستريح .

وأحسّت بالشلل يتمشّى في ارادتها الواعية ، ويوقفها عن اتخاذ قرار حاسم ؛ ثم برقت أمامها الحروف ، وكأنّها تخلع ثياب الزمن ، وتقفز الى عينيها ، كالعفاريت الصغيرة .

يا لقدرة الكلمات ! ..

نحبسها طيّ الدفاتر ، ونلجمها في أوراق ، ثم نقفل عليها ، حتى اذا ما تسنّى لها الخروج الى الهواء ، والاحتكاك بأسلاك النور ، لمعت ، وأرسلت الشرر . وها صوت رانية ، يرنّم بحزن من خلف حروفها الفوضوية ، المتشابكة :

« الخضوع مستمرّ . والأيام تمر فوق وجودي بثقل يكاد يسحقه . وتزداد

وحشتي وأنا أبصر يده تمتدّ الى دنياي ، الى كل ما في وجودي ، الى التقويم فوق جدار غرفتي .

أصابعه رشيقة في تقليب الصفحات والأوضاع ... تكرّ السنوات ... الأيام ، والثواني لعبة أنامله ... عصاه السحريّة تتلاعب بالأغصان الخضراء ، تغلّ في شقوق المساكن ، تغرس فيها الصدأ .

ويده القوية باقية خلف ظهري ، برغم إرادتي . عليها اتوكأ في المسير .

دعاني صباح ذلك اليوم ، لأرافقه الى كرم العنب . حمّلني سلّة صغيرة ، وعلّق الكبيرة في أحد ساعديه ، ومشينا فوق الحجارة ، في شعاب المسالك الضيّقة ، والمرتفعات الوعرة .

في صمت الطبيعة ، أحسّ أنّي أقوى منه ، تتجنّح حريتي ، فتغريني بالتحليق .

وأعادني اليه صوته الهادر :

ــ تعالي نتسابق في الجري .

ــ أنتَ اقوى . ساقاي نحيلتان ، وأنتَ رجل كبير .

ــ لا بأس ، جرّبي قوتك : واحد ، اثنان ، ثلاثة .

قفزت قبله ، وتملّكني فرح عظيم .

لم اكن أجري ، بل اطير ، ونسائم الفجر الفضيّ تعبث بشعري . كنا نتوازى ، أو نتلاحق وفي إحدى المراحل ، سبقته ... أنا سبقته ، تماماً كما

حصل لي في الحلم . أبصرت في منامي أني صرت مخلوقاً بجناحين ، ورحت أرفّ بهما ، وأرفّ حتى خفّ ثقلي ، وحملتني الرياح ، ولما صرت معلّقة في الجوّ ، تملّكني الرعب . كيف أستطيع الهبوط ؟ رحت أصرخ هلعاً . وأيقظني الصراخ . والى جانبه ، عادت إليّ تلك الطاقة السحريّة ، تشدّني الى فوق ، الى مشرق الشمس ، ودنيا العصافير والطيور القوية .

رحت أجري وحدي . لم أعد أسمع وقع خطاه ، وخشيت إن تطلّعتُ خلفي ان يكسب قصب السباق . كانت تتملّكني رغبة التحدّي ، وتجريب مقدرتي . يا للسذاجة ! .. يالجبروت الوهم ! .. ها هو أمامي ، يقف فوق الصخرة ، يلوّح بساعديه ويضحك :

ــ تجهلين الطريق القادومية ؟

ارتميتُ فوق التراب الاحمر ، ألهث من شدّة الاعياء ، وخيبة الامل . غرزت أصابعي في قلب التراب ، أحتمي بذراته من سطوة القوي ، ألوذ بها ، وأتمنى لو تذيبني ، وتصيّرني ذرّة من ذرّاتها .

معه لا يفيد التحدّي . سأعتمد أسلوب المماقة .

رحنا نقطف العناقيد الذهبيّة ، ننتزعها من أمهاتها بنهم وطمع . وكانت قبلاتُ الليل ما تزال تختلج بين أوراق الدوالي حبات من لؤلؤ وألماس .

ــ سنملأ سلّتك أولاً ، ثم نُعرّشها ونعود فنعبّىء سلّتي .

كلامه أوامر ، إرادته تخضعني . ويتكوّم فوق رأسي عجز الطفولة فأنفّذ الأحكام صاغرة .

كان ينحني فوق الدوالي ، ثم ينهض ، يتوقّف لحظات ، ويدوّر بصره في كل الجهات ، وأراه من مكاني ، عملاقاً ، يتجاوز ارتفاع أشجار الزيتون والسنديان .

عبّأنا سلّتينا ، وامتلأت الكروم بوهج شمس آب ، ولم يبق من ملاذٍ سوى الظلال المنحسرة تحت الحفافي وفي عباب الشجر .

مسح شروق الشمس بقايا رضاب الليل . وذابت البرودة الناعمة أمام زحف حرارة دبقة ، لم توفّر جسمي الصغير ، فرحت أحثّ الخطى ، على أمل الوصول السريع . وكان نمرود يتنقّل فوق الحجارة ، مثل ديك الحجل ، أنيقاً رشيقاً ، لا ينقصه المرح .

كان يتابع لعبة التحدّي ، دون شفقة . وشعرت بجسدي يتقلّص ، وكأنه حبّة ملح ، يذيبها العرق الناضح من مسامه .

شكوت حالي اليه :

ـ تعبت ، لماذا لا نستريح لحظات ، ثم نتابع المسير ؟

ـ كما تشائين .

لم أعد مهتمة بالفوز ، وتخلّيت عن رغبة المنافسة ، وتركّز فكري حول نقطة واحدة : أن أستعيد قوّتي ، وأتمكن من الوصول الى البيت .

خسرت الجولة ، وبلعت خيبتي .

كان يجرّبني .

هكذا فهمت فيما بعد . كان يمتحن مقدرتي على الصمود ، ويختبر الطاقة التي تحدّها السنوات الأربع عشرة .

ولم تكن تلك تجربته الأخيرة ، ولكنها كانت الحدّ الفاصل بين ما أريد ، وما يُفرض عليّ .

وظلّت مشيئته المنتصرة . وكان يربطني به خيط من نحاس ، ينقل إليّ أنغام الفرح حيناً ، وتيّاراً مكهرباً في معظم الأحيان . وتسري الكهرباء حتى أقصى أطرافي ، وتحوّلني الى آلة في يديه . الى كرة يقذفها ويلهو بها ، كيفما يطيب له .

وحين أستعيد شيئاً من الإرادة ، أول ما يخطر لي الهرب منه ، وطرده من حياتي الى الابد ... ولكن كيف ؟

كانت الطبيعة ملاذي الوحيد . الجأ اليها ، كما صرت ألجأ الى روزينا في زياراتي المختلَسة .

ولا أدري الآن ، وأنا أمضي في تسجيل فواصل الأحداث ، أيّها جرى في الواقع ، وأيّها جاء ثمرة الخيال .

* * *

كنت معلّقة فوق غصن زيتون ، في بستان روزينا ، حين تهادى إليّ صوته الأليف :

ـ العوافي .

كان نمرود يحمل بندقية صيد ويطارد رفوف السمّن التي بدأت غزوها لبساتين الزيتون . ولم يُضف على التحية حرفاً ، بل انتحى بروزينا زاوية من البستان ، ووقفا يتحدثان .

وطال الحديث بينهما ، واستفاقت شكوكي ومخاوفي .

وارتفع صوت باطنيّ يردّد في سمعي :

ـ لقد علم بالزيارة . وها هو يهددها . ان يسمح لك بصداقتها ، أو زيارتها بعد اليوم .

ثم هدر صوته من بعيد :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ ... صرتِ صبية ، وما تزالين تتسلّقين أغصان الشجر ؟ ... عودي الى البيت .

وصرفني كلامه عن مراقبة روزينا .

لقد اختفت كلمح البرق ، ولم أبصر سوى طرف ثوبها ، قبل أن تردّ باب الكوخ خلفها وتأوي الى وحدتها .

سرتُ الى البيت بصمت حزين .

واستفاق الشكّ في صدري :

ـ من اين استوحى هذا الحق ؟ يأمرني فأطيعه . يتصرّف بحياتنا كالمالك السعيد . ولا يهتم حتى لكلام ابي .

ولماذا اطيعه ؟

لماذا اطاعته روزينا ، فهربت الى وكرها كالجرذ المذعور ؟ ..

روزينا ، هي وحدها تستطيع أن تجيب على أسئلتي ... وها هو يقف بيننا ، ويغرس بذور الشكّ .

وصديقي الخوري الياس ، كان يعاني سكرات الموت .

وتضاعف خوفي . واستمرّ عذابي في دوامة القلق ، والخيبة ، واليأس . وازداد اختناقي في قلب الشرنقة ، ورفعت يديّ باستسلام المشرف على الغرق ... فاستجاب لندائي جرس الكنيسة . راح يرسل دقاته المتباعدة الحزينة :

ــ مات ابونا الياس .

والأشجار في فصل الخريف تخلع أوراقها ، تطرحها كالاثواب المهلهلة ، وتقف تحت لسع السياط الباردة ، تعاني من لطمات الصواعق ، والرياح ، وفي ذاتها تختزن ذلك الأمل الواعد بالربيع .

وخريف الناس يمتد على دورة العام . وليس لتساقط الرؤوس فصل معين .

وحين سجّوه في باحة الكنيسة ، اقتربتُ من النعش ، اتأمّله ، وارجوه ان يتحرك . وخلته يسمع كلماتي ، فتختلج الشعرات البيضاء في لحيته الناصعة ، وتبرق العينان ، ولكن نحيب النسوة ، جفله ، وأعاده الى سباته العميق .

لن يعود إلينا ، حاملاً في جيوبه الكتب المقدّسة ، وأقراص السكر ، وحكاياته وأحاجيه .

لن ينهض ، ويحمل المبخرة ، يؤرجحها ، في كل صوب ، ناشراً عبق البخور ، وكلمات البركة .

وأيقونات المعبد ، ظلّت جامدة ، داخل اطرها . لم يتحرك قديس واحد ، من رفاقه ، فيمدّ اليه يداً وينهضه ، ويبثّ في الناس الطمأنينة والإيمان.

كنا ما نزال بحاجة اليه . وبات الهيكل من بعده فارغاً بارداً .

• • •

إذن ، هذه هي الأشباح التي ظلّت تطاردك ، وتقتفي آثارك يا رانية المسكينة .

وفي تلك الصبيحة لم أفهم لم وقفتِ فوق الرصيف ، تتحمّلين لسعات المطر ، وأنت تراقبين طيف كاهن راح يتوارى بين زحمة المارة في طرف الشارع .

ـ هل تعرفينه ؟

ـ لا ، إنما يذكّرني بكاهن قريتنا ، حسبته هو .

فاتنا القطار الاول ، وحين استقلّينا العربة التالية ، جلستِ بجانبي صامتة . ولم اشأ ان اعكّر عليك تأملاتك ، فخنقت كلماتي . ولم تفتني دموع راحت تسيل على خدّك :

ـ ماذا جرى .... رانية ؟

ـ لا شيء يا سهام . تأثّرت من منظر تلك العجوز . أنظري يديها كيف ترتجفان . ثوبها رقيق ، وقوّتها ضعيفة .

ـ ولكنك أعجز من أن تتحمّلي آلام البشرية كلّها أيتها المُصلحة .. المدينة تؤوي الأشقياء والسعداء على حد سواء ، ولا تبالي .

– ولكنها ليست عجوزاً من المدينة ، يبدو لي انها نازحة من الريف ، وجاء نزوحها متأخراً فلم تكن لها الهمة لتشق طريقها بين زحمة البشر ، لذا ارتضت ان تعيش على فتات الرحمة ... تأمّلي يديها .

– وتأمّلي يديك . انك ترتعدين . واذا استمرّيت على هـــذه الحال لن تنجحي في الامتحان ... لكلّ صليبه ، يحمله ويمشي .

كنتُ أنا الفيلسوفة في تلك الصبيحة الباردة ، ونحن نتّجه الى مكتبة الجامعة ، حيث قررنا أن نمضي النهار في المطالعة ، استعداداً للامتحان .

ولم أفهم ، حينذاك ، يا رانية الحبيبة ، ان الذكريات كانت تتكوّم ، أثقالاً من التعاسة ، وكنتِ تحملين الثقل وتسيرين في طرقات المدينة ، غريبة في هيكل أشباح . ولم يخفف ثقلَ الحمل ، غوصنا بين دفّات الكتب ، نلتهم أحرفها بنهم ، ونتنفّس ذرات الغبار والعفونة مع نسائم الأفكار .

نسيتُ كل شيء عندما انضم الينا مروان ، وجلسنا ندرس سوياً . ومع اني حاولت لجم مطامحي ، وأحلامي ، فقد ظلّ قربه يريحني ، ويذرّ الهدوء والاستقرار في نفسي وأعصابي . وعوّدت نفسي أن اكتفي منه بذلك القدر .

أما انت ، فقد كان درعك الواقي أقوى من جراثيم العاطفة . هكذا اعتقدت في الماضي ، وكنت اجهل انك كنت تمثّلين وتخدعينني .

أتزحلق من هذا البعد ، على حبال الافتراضات الوهمية ، ولكن فات الاوان ... فات الاوان .

رحت تقلّبين كتابك ، حين انزلقت ورقة مكتوبة بخطّ اليد . فهرعتِ خلفها بلهفة ، وقبضتِ عليها ، وزججتها بين الأوراق ، بنزق واضطراب .

اغتنمتُ الفرصة لاخرجك من عالمك القاتم ، فسألتك مداعبة :

– رسالة غرام ؟ من هو الحبيب المجهول يا رانية ؟

السؤال طرق أذنيّ مروان ، فتسمّرت عيناه فوق صفحة كتابه ، ولم يظهر أيّة ردّة فعل . وتابعت عيناك القراءة بعدما مسحتِ شكوكي بعبارتك :

– انها تعويذة . كتبتها امي لتحفظني من شرور المدينة .

لم تكذبي .

كانت تعويذة حقاً ، انما لم تكتبها يد أمك بل خطّتها أصابع نمرود . وبدل الحبر ، استخدم التراب الممزوج بالدم وعصارة الزيتون . وكان عليك ان تبقيها ملاصقة لصدرك ، وربما حاولتِ التخلص منها تدريجياً ، فجعلتها بين اوراق الكتاب .. انت التي تعلمين كم هو صعب خلع الاحداث المتراصّة في ثنايا الذاكرة . « وهي حين تدخل من ذلك الباب السحري ، تتراكم . تتلاحق ، تنفرش بقعاً وتبقى هناك ، ويغيّب بعضها وجوه البعض الآخر ، انما يبقى عاجزاً عن محو الأثر » .

فكرتُ مرة انك فقدت قلبك الحي . دفنتِه في مكان ما ، من ماضيك ، والا فكيف يمكنك المسير في الحياة ، كالطيف الحالم ؟

وكانت دنيانا تعبق بأريج الشباب ، والمرح ، وبقيتِ أنتِ في عالمك البعيد ، تمدّين منه يديك ، وعينيك ، دون ان تغوصي في اللجة حتى الاعماق .

وحين كنا نسير معاً ، في باحات الجامعة ، كنا نضيع بين الشِباك التي تحتوينا ، وترفعنا على إيقاع امواج الحياة الزاخرة في صدورنا الفتية . وظللت تجرجرين قدميك وقد ناءا بالحمل ، وحطّم الثقل كل محاولة فيك للانطلاق ،

وبقيتِ هناك ، تزحفين ، ومروان يتابع السير في اثرك . وقد بدأ تصرّفه يغيظني ، ويثير النقمة في صدري .

كيف يستطيع المرء ان يبقى واقفاً امام باب صامت ، يطرقه ويعيد ، ولا يجد تجاوباً ، ولا يحيد ؟ .

يتعب كثيراً من يحاول تفسير تصرّفات البشر . ولم اكن مستعدة لممارسة الكثير من العناء . اعتدت ان أتقبّل الامور كما تأتيني ، اما انت ! .. وأما مروان ! ...

لم يكن باستطاعتي ان اتابع خطواتك في أعماق الظلمة الحالكة . وكنتُ اعتقد ان الصداقة التي تربطنا ، هي لأشهر ، لسنوات ... رفقة طريق الجامعة ، ومن بعد يختار كل سبيله .

وها عدت تزجّين أوراقك الصفراء في وجهي ، وتحمليني على متنها الى مراجعة أحلامك الاسطورية ، ومعها تعود أحلامي الماضية ممزوجة بالدموع : «وحين نتعلّق بالماضي ونعشقه ، نكون آمنين خطره . انه الجزء الذي تلاشى وانقضى ، ولن يستطيع التحدّي ، أو تبديل سبل المسير » .

العبارة مستعارة منك .

ومن الماضي ، ماضينا ، تشرق في ذاكرتي خيالات تلك الايام العذبة . خرجتُ من قاعة المدرس ، اصفق مرحة ، واخبرتك وانا ارقص ، اني نجحت .

وددت لو تشاركين مرحي ، وبقيتِ واقفة كالصنم .

– رانية ، ما بك ... هنئيني بالنجاح .

– مبروك .

خرجت الأحرف من فمك ثقيلة باردة .

– وأنتِ ، هل حصلت على النتيجة ؟

– اجـــل .

– ما بالك ... هل هناك تقصير ؟

– كـــلا .

– ولم صمتك ؟ افرحي بالخلاص .

ورحتُ أهزّكِ ، فلم ترتعش شعرة من رموش عينيك .

ومضيتُ في الثرثرة :

– سوف نحتفل بنجاحنا يا رانية . غداً عيد ميلادي ، سأدعو الزملاء الى حفلة راقصة ، وتأتين ؟

– لا استطيع .

– عدنا الى الألغاز ؟ تعالي . أنت ضعي قائمة الأسماء ، سوف أختار الرفاق الذين يعجبونك .

واستمرّيتُ في الالحاح ، ثم الرجاء ، حتى قبلتِ .

وفي اليوم التالي ، كنتُ منهمكة في اعداد الحفلة ، والتمتّع بكل لحظة من لحظات السعادة والهناء . ولم أفهم كيف يمكن لفتاة في عمرك ، ألا تفرح بالنجاح ، وتشارك في الرقص ، وتحوّل لحظاتها الى غزوات عاطفية ؟

لم يصدمني مظهرك ، وأنت تلجين قاعة الاحتفال .

حضرتِ بثياب المدرسة ، وقد خلا وجهك من أي لون أو زينة ؟ كما بقي شعرك مبعثراً على طبيعته ، ودلفتِ الى زاوية ، اخترت فيها مقعدك ، ورحتِ تتأملين من حولك والبسمة الغامضة تشعّ من عينيك ، وفرضنا عليك ان ترقصي ، وكان مروان أكثرنا إلحاحاً :

ـ عليك ان تخلعي رداء الجد ، وتمثلي . المجتمع مسرح ، هل تذكرين قول شكسبير ؟ ولا ينجح سوى من يتقن الدور ؟

ـ وانا لا يهمني النجاح .

ـ لكني اعول كثيراً على قبولك .

واخيراً قبلتِ . كنتِ مثل الحيوان العالق في الفخّ ، وقد تحوّلت بسمتك الى ذعر :

ـ لا أعرف كيف أتحرك ... صدّقني يا مروان .

ـ لا تخافي ... أنا اعلمك .

ومروان اقوى منك . جذبك اليه ، بينما راحت الأبصار تراقبكما . ثم لم يلبث ان اندمج كل في دوره .

وحين عدتُ إليكما بعد لحظات ، أبصرتكما ترتفعان فوق رؤوس الجميع ؛ كيانين في غاية الانسجام ، منفصلين عن روابط الارض ، تتمتعان بكل ما تسكبه الموسيقى في نفوس الشباب ، من أحلام ووعود . ثم لم تلبثا ان تحوّلتما الى طائرين ، ورحتما تحلقان بعيداً ، وقد انفصلتما عن جاذب الارض .

وصرخ بسام من فوق كتف رفيقته :

ـ اكتشاف يستحق التسجيل . لقد ولدت الليلة نجمة جديدة . انظروا ... وانا كنت أظنّها مبشرة، ناسكة . يا لخداعهن ! من يستطيع ان يفهم المرأة ؟

لم يصلكما كلام بسام . وخشيتُ ان يتابع هذره ، فهرعت أشغل شدقيه بلقمة أكل . وظل انتباهي يتجوّل حولكما . وفي اللاوعي ، كنت أحس ان الاحتفال يفقد طعمه ، وغايته لولا وجود مروان .

* * *

« جاذب مغناطيسي يشدّني الى دار روزينا .

هربت إليها تلفّني ستائر ضباب راح يزحف على القرية ، ويطرد العصافير . فتحت لي الباب مرحّبة :

ـ إذن عدتِ ... تعالي ساعديني في تنقية القمح .

كانت عرمة الحبوب الذهبية مكوّمة فوق صدر نحاسي ، أمام النافذة الوحيدة في كوخها ؛ كمية كبيرة بالنسبة لشخص واحد .

أجابت وكأنها قرأت ما يدور في فكري :

ـ احضر لهم مؤونة الشتاء . يأتون إليّ من كل جهات الارض . يحملون أحشاءهم الفارغة ويقفون حول الدار .

ـ من هم ؟

قهقهتْ لسذاجة السؤال :

ـ أبناء الريح . العصافير ، طيور الدوري ، واذا لم تطعمهم روزينا ، من يهتمّ بهم ؟؟

ـ ولكنّهم لا يحتاجون الى هذا العناء .

ـ أطعمهم من قمحي ، وأجفّف لهم الزبيب والتين . هم سلواي في فصل البرد والعواصف .

إذن ، المرأة مجنونة حقاً . وهذا يفسّر عبارة الجارة : « لو وزّعت روزينا الطعام على الفقراء ، ألم يكن أجدى ... ؟ ولكن كيف تُعرّف الناس الى جنونها ؟ » .

وعادت هي تتمتم :

ـ الناس جذورهم ثابتة ، وحياتهم جمود ، والعصافير أمواج تتحرّك في بحر الوجود الفسيح ، تحمل إليّ من كل صقع خبراً . ربما تحوّل الحبيب الى واحد منها . ألا تعرفين قصة الطائر الاخضر ؟

ـ قصّيها عليّ يا روزينا .

وتمضي في سرد الحكاية :

كان فتى وديعاً ، جميل الشكل ، لطيف المعشر ، غضبت عليه الآلهة ، فأفقدته امه .

وتزوّج ابوه امرأة شرّيرة راحت تعذّبه ، وهو يضعف ، ويعتلّ . وفتك به مرض عضال ، لم ينفع معه العلاج والطبابة ، وأخيراً مات .

وعادت روح الأم ترفرف فوق القبر ، فجمعت عظامه ونقلتها الى جرن رخامي ، وراحت تحمل إليها الماء كل يوم ، وتسقيها . ونجحت في إحياء العظام الرميمة . وعاش الفتى ، ولكن بدل أن يتحول الى انسان أصبح طائراً جميلاً ، أخضر اللون .

وكان يقصد دار أبيه كل يوم ، يرفرف حول النوافذ ، ويحوّم فوق السطح مرنّماً :

« أنا الطير الاخضر

أمشي واتبختر

خالتي ظالمتني

بالسكين ذبحتني

وأمي الحنون

برموش العيون

لملمت عظامي

وسقتها في الجرن الرخامي » .

وكانت روزينا ترنّم الكلمات وتلحّنها ، وتترنّح على الجانبين ، مغمضة عينيها . وكأنها تمارس رقصة الدراويش ، ثم فتحت عينيها وتابعت :

« لم يكن باستطاعة أحد ان يبصر الطائر ، أو يسمع صوته ، سوى الخالة الشرّيرة . بدأت تحكي لزوجها عنه ، فلم يصدّقها . نقلت الخبر الى الجارات . فلم يفهم أحد معنى روايتها . حاولت أن تطرد الطائر فعجزت .

كلمات أنشودته ، تحوّلت الى مطارق تخبط رأسها ، وتقلقها ، فهجر النوم عينيها وفقدت طعم الراحة ، ثم عقل لسانها فلم تعد تستطيع النطق بكلمة . عدا الترنيمة ، وانتهى عذابها الى الجنون » .

رحت أبحث عن صلة بين حكاية روزينا وحياتها ، وأتساءل : هل روت لي قصّتها الغريبة لتدخلني عالمها ، وتطلعني على ما تقاسيه من عذاب ؟

والطائر الأخضر ، هل يعود كلّ عام مع الطيور المهاجرة ؟

ظلّت يداي تعملان ، منفصلتين عن افكاري الهائمة مع فراشات التخيّل والحلم . وخالجتني المخاوف والشكوك . وأنا أفكر : لماذا اعود اليها ؟

ربما انتقل الجنون بالعدوى ، فأصبح مثلها ، روزينا ثانية ! ...

ونهضت استأذنها .

كان خوفي يقود خطواتي خارج كوخها . وظلت غشاوة قاتمة تغلّف روحي ، وتحجب عن عيني الرؤية بوضوح .

كنت أحس دائماً أن حياة البشر العاديين لاتغذي فضولي .

إنهم يأتون الوجود ويغادرونه مثل ظلال الاشياء ، في وقت الظهيرة ، حتى اذا مالت الشمس الى الغروب ، تلاشت الظلال .

أما روزينا ، فكانت تحفر خطواتها في عمق التربة ، وتترك مع كل نقلة ، فلذة من أحشائها .

ونمرود لم يكن انساناً عادياً بالنسبة اليّ على الاقل . كان جلدي اللاصق باللحم ، الجامع عظامي . وكان حجمه يكبر وينمو مع مرور الأيام . حتى اذا ما شعرت بالضيق ، وبالرغبة في تفتيقه ، وخلعه ، ارتعدت وأحست كياني ينهار .

وكان نمرود الكفّ القابضة على وجودي ، وبين يديه ، كنت أتحوّل الى دمية ، تحرّكها أصابعه كيفما يحلو لها ، حتى اذا تعب من العبث ، وكفّ عن تحريك الخيوط ، ارتميت بلا حراك ، جامدة ، فاقدة رغبة العيش .

محاولات التحدّي ، والرفض ، والخروج على طاعته ما كانت سوى درجات جديدة ، تقودني اليه .

كنت أعرف ذلك ، ونفسي تطلب المزيد من التأكيد . وكانت دعوة روزينا إحدى تلك الخطوات .

لم يسمح لي أن اختلط بأبناء القرية . عرفت الناس من خلال اخبارهم ، واحاديث الجيران ، وملاحظات نمرود . وظلّ كوخ روزينا من المحرّمات التي فرش بها سبيل تحرّكاتي .

ونمرود الذي شهر سلاحه القوي في وجهي وابعدني عن هاني ، وهددني بالعقاب اذا زرت روزينا ، لم يعترض على صداقتي مع « أبونا الياس » . كان يعرف ان دربه تقود الى تلك النقطة الآمنة ، المسربلة بالغموض . وصار يقطّب حاجبيه ، وتمرّ فوق وجهه سحابة داكنة اذا ما ذكر اسم روزينا في حضوري .

صرت صبية ، وبات من حقّي ان أتساءل ، وابحث ، وأثور عليه . وكنت اعرف ان السبيل ليس ممهداً ، ودرب التمرّد مفروش بالعوسج . ولكن إلامَ يبقى هو ظلّي ؟ وتظلّ أنامله تسيّر ارادتي ، وقالبه يقيّد حجم خطواتي ؟

عادت روزينا تعترض سبيلي بعد مرور اشهر .

كنت أقصد عين الماء ، لأملأ جرّتي .

الطريق الموحلة كانت مرصوفة بالأشباح .

لقد خيّم الظلام باكراً تزيد كثافته غلائل ضباب كانوني .

قفزت من مخبإها وقطعت عليّ الطريق :

ـ أوصلي الجرة ، وتعالي اليّ .

ـ لكن الوقت مساء ، واهلي سوف يفتقدونني ، غداً أزورك يا روزينا .

ـ بل الليلة يا حلوتي . انا محتاجة اليك .

ـ هل عادت طيورك ؟

ـ الوقت ما يزال باكراً . تعود مع شروق الشمس . لا أفكر بالطيور الآن . يهمّني شخص واحد ، هو انت . لقد كبرتِ ، اسم الله عليك يا رانية . صرتِ صبية ، وعندي اخبار لك .

ومثلما اطلّت علي ، اختفت دون ان اسمع لخطاها وقعاً .

فكّرت بإهمال دعوتها . سوف يطالبني أهلي بتفسير غيابي ، خاصة في المساء . إنما صوتها ظلّ يرافق خطواتي : أنا بانتظارك . بانتظارك ! .

وكان جاذبها أقوى من كل رفض .

وجدت بابها مشرعاً . وكانت هي مكومة قرب المدفأة ، ونور المصباح الزيتي ، يصارع الظلمة بجهد .

لم تتحرّك لاستقبالي ، بل أومأت اليّ بيدها لأجلس . وأطعتها بصمت :

– نعم يا روزينا .

– اخترتك لجلسة سمر . اشعر بالوحشة هذه الليلة كما لم أحسّها من قبل .

– شكراً على اختيارك ، اهذا كل شيء ؟ ...

لم تفتها برودة جوابي . فانتفضت تغيّر جلستها . واقتربت مني اكثر وهي تتمتم :

– انتم الصغار تستعجلون الامور ، ليس عندكم صبر المجرّبين .

– لكني لست صغيرة كما تتصورين . بدأت اليوم عامي الخامس عشر .

– اعلم ذلك . ولهذا السبب دعوتك . احترسي من الغد . اقتربت الفأس من اصل الشجرة .

– أيّة شجرة ؟ ماذا تقصدين ؟ لا أفهمك ؛ أوَ هذه أخبارك ؟

ولم تجب .

مدّت يدها الى الملقط فتناولته ، وراحت تنكت به النار . وغامت نظراتها مع ألسنة اللهب ، حتى خيّل الي انها نسيت حضوري والموضوع الذي من أجله دعتني . استمدّيت من اليأس قوة لأقول لها :

– سوف أعود الى المنزل . أمي تفتقدني ، ولن يعجبها خروجي في الليل .

– أمّك ، أم نمرود ؟

إن الخوف يغلّ روحك ، ويشلّ حركتك ، وسوف تظلّين أمة ما دام سيفه مسلطاً فوق رأسك .

– لكنّه إنسان لطيف ، وهو لا يؤذيني . بل أكثر من ذلك ، إنّه يحبني . هو صديقي المفضّل .

– لا تعيدي هذه العبارة ... إنها مبطنة بالخطر . أنت جاهلة ، لا تدركين معنى أقوالك . والآن لم يعد لي ما اقوله لك . عودي الى أمّك ، ومنها سوف تفهمين أموراً كثيرة .

وسمعت صوتاً داخلياً يردّد :

مجنونة ... حقاً مجنونة . وأنا أمضي في مغامرتي ، فأصدّقها ، وأخدع أهلي ، من أجلها ... لماذا عدتُ اليها ؟ لماذا ؟

صفقتُ الباب خلفي بغيظ ، وما كدت أغادر الكوخ ، حتى انبرت الشكوك تنهش صدري ، وتفجّرت كلماتها في أذنيّ ... « كلمات مبطّنة بالخطر ... الخوف يغلّ روحك ويشلّ حركتك ... سوف تظلّين أمــةً ، ما دام سيفه مسلطاً فوق رأسك » .

أو هذه اخبار ؟ يا لهذر المجانين ! ..

حاولت ان أسكّن نفسي بالغناء . رحت أبحث في ثنايا ذاتي عن لحن يعيد إليّ بعض الطمأنينة ، ولكني عبثاً بحثت ؛ حتى الكلمات راحت تفرّ . وتتطاير ، وتتفرّق على جانبيّ الطريق ، لتعود وتقفز الى عيني كرؤوس الحراب ؛ وشعرت ان تلك الحراب تتجمّع في مكان واحد ؛ وتتّجه اليّ ، تستنفر كلّ طاقة لديّ لوعي الواقع ، ومجابهة الخطر ، والعبودية .

حتى تلك اللحظة ، كانت حياتي هادئة ، وأسئلتي ساذجة . وكنت أقبل الامور على علاّتها ، والكلمات ، كما تفرغ في سمعي . ولكن ، بعد زيارتي

روزينا ، شعرت أنـــه من حقّي الفهم والوعي والمحاسبة .

هكذا صمّمت وأنا استرق الخطى الى غرفتي .

ولكن امي التي لا تغفل لحظة عن تحركاتي ، كانت لي بالمرصاد .

استقبلتني عند الباب تسأل :

ـ أين كنتِ ؟ ماذا يقول الناس لو أبصروك في الشارع وحدك ؟ إيه ! ..

كانت لهجتها المؤنّبة عود الكبريت الذي أشعل الحريق .

وقفت أمامها بجرأة ، ولم أخفض بصري الى الارض ، كما كنت أفعل في السابق . وتراجعت هي قليلاً ، باحثة عن تفسير لجرأتي ، فعاجلتها بالسؤال قبل ان تستردّ وعيها :

ـ الى متى سأظلّ خاضعة لإرادتكم ؟ لإرادته ؟ الى متى ؟

لمحت الذعر في عينيها ، وهي تجمع قوّتها متسائلة :

ـ ما بك يا رانية ؟ لهجتك غريبة .

ـ أجل . وسوف تزداد غرابة . أخبريني الآن من يكون نمرود ؟ ما علاقته بنا ؟ والى متى سيظلّ متحكّماً بحياتنا ؟

ـ هسْ . اخفضي صوتك ، وتعالي معي .

رافقتها الى غرفتهـــا . كنت أطمع باكتشاف الحقيقة ، وشعرت في تلك اللحظة اني لن استطيع إغماض عينيّ قبل أن افهم .

سألتني أمي هامسة :

– اين كنت ؟ من هو الانسان الذي قلب هدوءك صخباً .

– روزينا . زرت روزينا . وهي التي فتحت عينيّ ، ووضعت الأسئلة فوق لساني . من حقي ان اعرف هويّتي . أراك وابي تتحركان كالآلة في يديه ، وتجرّانني معكما ، وفي السابق كنت صغيرة ، لا أفهم . كنت جاهلة ، واعتدت رؤيته في بيتنا . أخبريني ، ما هي صلته بنا ؟ ...

– المعرفة من حقّك يا بنيّتي . يا وحيدتي ... اسمعي ...

ويا ليتني لم أسمع !...

ليتني بقيت أتخبّط في هواجسي ؛ أحيا بين الشكّ واليقين .

وهذا ما سمعته من أمي . روته لي بهدوء زاد في إثارة حنقي :

– من أين أبدأ يا رانية ؟ .

كنّا جماعة فقراء ، لا نملك أرضاً ولا سقفاً فوق رؤوسنا . وكان ابوك عاملاً في مزرعة نمرود، بل في مزارعه التي لا يحدّها البصر .

هو لم يخبرك من قبل ، وأبقى المفاجأة حتى تكبري .

هذا الانسان المتواضع البسيط هو أكبر اثرياء المنطقة ، وهو خطيبك ، بل أكثر من ذلك . قريباً سوف تصبحان زوجين .

اسمعي ، ولا تقاطعيني . كان أبوك يتيماً ، حرم عطف الوالدين ، الى جانب الحرمان المادي . وكان والداه من قبله يعملان في مزارع جبور بك ، والد نمرود ، الذي تسلّم الطفل وربّاه مع ابنه ، وراح يخصّه بعطف لا

يغدقه على غيره من العمّال . وقبل وفاته استدعى نمرود اليه ، واوصاه بابيك ، وأخذ منـــه وعداً بألاّ يتخلى عنه ، مدى الحياة ، بـــل يعتبره أخاً له .

ونمرود عمل بالوصيّة ، فقدم والدك على سائر العمال ، بل جعله شريكاً له ، ومساعده الأول . ولما تزوجنا ، ازدادت رعاية « البك » لنا واهتمامه بشؤوننا .

«بك» هو لقبه ، وقد حرم علينا التلفّظ به أمامك ، لأنه يريدك أن تحبيه لشخصه ، لصفاته ، لا في سبيل الجاهْ او المال .

وفي احد الايام ، وكنا نعمل في حقل الزيتون ، أقبل هو في جولته المعتادة على العمال .

كان مرهقاً ، والحزن ينضح من عينيه ؛ فاتكأ الى جذع الزيتونة ودعانا لنشاركه الزاد ؛ وهنا ، تجرّأ والدك وسأله :

ــ لم لا تتزوج يا بك ؟

فهز رأسه ولم يجب ... ثم التفت اليّ وقال :

ــ حظّك كبير يا سعيد . سلمى امرأتك جوهره ، وكلّما تأمّلتكما معاً شعرت بالغبطة .

وردّ والدك :

ــ بامكانك يا بك ان تجد خيراً منها . انك ثري ، وما زلت في أوج الشباب . أجمل فتيات المنطقة تتمنّى ان تصبح شريكة حياتك .

ـ ولكن ، من يكفل لي الا تكون الجميلة طامعة بمالي ؟ على كل لم ألتقِ بالمرأة التي ترضيني .

ـ كل الامور تتسهّل اذا اراد المرء ان يسهّلها .

ـ لا . الزواج قسمة ونصيب . ويا لتعاسة من كان حظه خائباً ! ..

ـ أنتم الكبار تعقّدون الامور . أنظر الينا ، انا لم أعدّ حتى العشرة حين خطبت سلمى . وها نحن من أسعد الازواج .

ـ قلتُ لكَ سلمى جوهرة نادرة ويا ليتني أعثر على اخت لها .

ثم استطرد بعد قليل :

ـ شو قولك يا سعيد تزوّجني بنتك .

وضحك ابوك ، وظنّ أن البك يمزح . اذ لم يكن لنا ولد . وكنتِ جنيناً في أحشائي ، ولا أدري ما الذي جعل والدك يكفّ عن الضحك ويقول بجدّ :

ـ هذا شرف لا أحلم بالوصول اليه .

وتابع نمرود :

ـ اني لا أمزح يا سعيد . اذا ولد لكما فتاة ، تعدانني بها ؟

كنتِ كما قلتُ ، ضميراً في ضميري . وساورتني رعدة فرح وخوف في آن واحد . صحيح لم يكن لنا أمل بالوصول الى تلك الدرجة من الشرف ، ومصاهرة البك ، ولكني خفت عليك . أما ابوك ، فكان يشعر طوال حياته ، انه مدين للبك ، بالحياة ، واللقمة . واغتنم الفرصة ، ليرد له دينه ... كما

اعتبر تلك الفرصة ، بريق السعادة والحظ الذي لا يشرق في حياة الانسان مرّتين .

وهكذا تحوّل الحديث العفوي ، تحت تلك الشجرة الدهرية الى وعد للعمر ، والى الواقع الذي وصلنا اليه اليوم .

* * *

كانت امي تصبّ كلماتها دون صعوبة ، ولا انفعال .

رحت التقط كل حرف منها ، واجمعها ، ثم احاول هضمها ... وحين توقّفتْ ، شعرتُ بالغصّة ، وكأنّ كتلة من شوك علقت في حلقي ، تكـاد تخنقني .

وظلّت هي هادئة ، مسبلة جفنيها ، هائمة مع قصتها الحالمة .

فتحت فمي لأقول شيئاً ، فلم أقدر ... لم يكن باستطاعتي ان أصدق :

– نمرود ، عمّو نمرود ، هو ... هو إذن ؟

– اجل ، هو خطيبك يا رانية . وسوف نزوّجكما في أقرب فرصة . ترين ، تدخّله في حياتنا لم يكن حشرية ، بل حقّه المشروع . ومن اجل ذلك الحقّ ، وهبنا الأرزاق ، والدار .

– وجعلني الطمع سجينة في قفصه الذهبي . هذا ما اردتموه لي ، لابنتكم الوحيدة . كيف استطعتم يا أمي ؟ اين عطف الوالدين ؟

– عطفنا عليك ، ومحبتنا لك ، كانا دافعنا الى القبول . وبدل أن تكوني خادمة في مزارع نمرود ، جعلناكِ سيدة على ماله وقلبه ، سوف تصبحين الآمرة الناهية في املاكه ، وأرزاقه ... أفهمت ؟ ..

– هذا كل ما تفكران به ... المال ، والأرزاق ؟ وماذا عن العاطفة ؟ وفارق السن بيننا ، وإرادتي ، وطموحي ؟

– كلّ فتاة تتمنى ان تكون في وضعك . بنات القرية يغبطنك . والأهالي يحسدوننا على هذه النعمة . كوني فتاة عاقلة ، متبصّرة ، ولا تثيري المشاكل . لقد ولدتِ في ليلة القدر .

هذا ما تعتقده أمي . امي ! ...

راحت المسافة تمتدّ بيننا ، وتتحوّل الى صحارى وأوقيانوسات . وكانت خاطرة واحدة تطرق جدران الوعي : كيف أهرب ؟ واين سبيل الخلاص ؟

يدي على مفتاح ألغازك ، وعيناي تطاردان شبحك .

الى أين لجأت ؟ أتمنى لو تعودين اليّ يا رانية ، لنتناقش ، لأفهم منك ما يعصى عليّ إدراكه في أوراقك . وهذه الحبكة الذكية ، هل تطرحينها أمامي لإثارة شوقي ، وذرّ البهار على الأحداث الرتيبة ، أم هي عصا تدلّني الى السبيل ؟ وأي سبيل ؟ والى أين سأصل معك ؟ ثم ، ما الفائدة ، وأنت الآن في عالم بعيد ؟ ...

منه كان هربك ، وشبحه ظلّ يطاردك في شوارع مدينتنا ، وكم كان الخلاص سهلاً ، لو لجأت الى أساليب واقعية ، حكيمة .

ولكن لمن أحكي ؟ وما بقي حولي سوى الجدران . وهذه الأطياف من ماض انقضى ، وأمنّا شرّه .

كيف يمكن لتلك الغرائب كلها ان تولد في بقعة واحدة ، ضيّقة المساحة ، كغرفتك ؟

وهل شخصيات أوراقك وُجدوا حقاً ، أم أنهم فراشات أحلامك ، وابتكارات خيالك ؟

يا رانية ، لست مصدقة ! ...

على سبيل التندّر دعوناك « الطائر الغريب » . وكنا نرى في تصرّفاتك كثيراً من الطرافة ، ورجونا ان تتبدلي في يوم ، وتألفي حياة البشر ، فلا تبقي منطلقة مع وَلْولة الرياح بين الأودية وأحراج السنديان والملّول .

ظننتِ أن خلاصك يكمن في التجائك الى هذه المدينة ، وجهلتِ ان العالم الخارجي لا يشفي ، والتحوّل يجب أن يتمّ في الداخل .

وهل كان سعيك من أجل خلق الأعجوبة ؟ والانتقال النهائي عبر جسور التجارب الذاتية ؟

عشنا سنوات ، ولم يخطر ببالي أن خطواتنا كانت تقودنا في اتجاهين متعاكسين ، حتى وصلنا الى الفراق الجازم ، صباح هذا اليوم .

لا اعلم ، اذا كنتِ ستعودين في يوم لتعدّلي جملة ، أو تضيفي الى ذكرياتك فكرة وتحملي معك ثمار النضج والاستقرار .

أما أنا ، فستظلّين في خيالي ، طفلة ضائعة . عاشت أيامها في الوهم . وفي ظلّ الأساطير ، ولما خرجت الى شمس الواقع ، انبهرت ، ولم تعد تستطيع التحرّك .

وظلّت تصرّفاتك الطفولية تقفز الى وجه الأحداث ، فتدفعنا حيناً لإدانتك ، وأحياناً الى الضحك منك او الإشفاق عليك .

شهقتِ مرة ، حين سمعتِ « سوسو » تصنّف بسّام ، بأنه مثال الرجل الكامل . لم تفهمي وسألتها بسذاجة ، ماذا يعني قولها ؟ ..

وسرّت لملاحظتك ، فراحت تصبّ في أذنيك أسرار العلاقة بين الرجل والمرأة ، ومعنى الرجولة والأنوثة . ولم تفهمي .

ترى ، هل أرادك نمرود أن تظلّي ساذجة الى هذا القدر ، ليبقيك في حجم قبضته ؟

لم تكن لذّة الحياة في نظرك ، تنحصر في حبّ الرجل ، ولا النجاح في عمل . كنتِ تعبرين من خلال هذه الظواهر الى أبعاد غامضة ، تكمن في تجاويف ذاتك . وتطلبين دوماً ، شمعة تنير لك السبيل ، للاستزادة من الفهم ، والادراك .

كنت وإيّاك ، عالمين مختلفين ، يجمعهما التناقض ، ويوحّد بينهما سرّ الجهل لا أسرار المعرفة .

وبينما أمضي في اكتشاف عالمك ، أفكّر كم كان عجيباً أن نلتقي ، ونترافق ، ثم نتوّج صداقتنا بهذا الفصل من البوح .

كانت خيبتك عاصفة هزّت كيانك وفتحت في أحشائك ذلك الجرح العميق ، والذي عجزت عن شفائه الكتب ، ورفقة الأصدقاء ، وحتى هذه المدينة ، بما تجمع من عوالم ومغريات .

حاولت مراراً أن أضمّد جراحك ، والهيك عن نزفه المستمرّ ، وكانت رحلتنا الى جبل الأرز واحدة من محاولاتي العقيمة .

رجاني مروان أن اقنعك بمرافقتنا . (على فكرة ، أظن أن مروان مادة استهلكتِها دون وعي ولا ارادة وكان هو يستمرىء ذلك ، ويأمل بأن تشرق الشمس في نفسك ، وتزول أخيلة الهواجس) .

كان الوقت ربيعاً ، الفصل الاخير ، قبل تخرجنا ، وفوجئت بقبولك . لم تستطيعي مقاومة اغراء الطبيعة . وكان ذلك النهار عرساً ، التقينا فيه

بكل مرحنا ، لنشارك الطبيعة تفتّحها ، وعذوبتها .

اختار مروان مقعداً مجاوراً ليتسنّى له مراقبة وجهك ، وهو يتقلّب مع تبدل المناظر . وعلى سبيل التسلية ، سألني لأقصّ عليه حكاية ادونيس وعشتاروت ، ولما انتهيت علّق بقوله :

ـ أعتقد ان القصة حدثت فعلاً ... تأمّلي دماء أدونيس .. ما تزال تبرقع وجه الأرض . انها رسائل غرام ، اتّفقت الارض والسماء على تبادلها في كل ربيع .

ـ رسائل استُخدم فيها الدم بدل الحبر ... انظروا الى أزهار الشقيق ..

واستطرد مروان :

ـ وان لم يسفك الدم ، تبقى الارض مجدبة ، عقيمة . كم هي عطشى أرض بلادنا ! ..

ـ هل تؤمن بالتضحية يا مروان ؟ التضحية كمبدأ . كفعل إيمان ، كشهادة ؟ .. أنا لا أرى في الوجود ما يستحق إراقة الدم .

ـ لانك لم تختبري الحياة بعد .

ما زلت تعيشين في حمى العائلة والمدرسة . فتاة بورجوازية مرفّهة . بالطبع التضحية شيء بعيد عنك .

أخذ الحوار يرتدي طابع الجد . وظلت عيناكِ هاربتين عبر النافذة ، وبدوتِ يا رانية ، وكأنّك محمولة على جناح طائر ، لا في « بوسطة » ثقيلة تتلمس سبيلها فوق تلك المرتفعات ، بدراية وحذر .

حاول مروان أن يجرّك الى الحلقة . فطرح عليك سؤاله :

– ما رأيك يا رانية ؟ هل يستطيع الانسان ان يتذوّق لذّة العيش . اذا لم يعرف معنى التضحية ؟

استفهمتِ وكأنّك تعودين من حلم :

– ماذا تقصد؟ وأيّة تضحية ؟

– تضحية الانسان طبعاً ، في سبيل عقيدة ، مبدأ ... لاجل الوطن مثلاً ! .

– ليس باستطاعتنا ان نختلق المناسبة . يجب أن تولد . حين تقترب الفأس من اصل الشجرة ، فهي تحمل معها مغناطيساً يجذب ذرّات الحياة ، لتصارع وتكافح ، في سبيل البقاء . وهذا شأن الانسان ، فرداً كان ، أم جماعة . وكلما ازداد الخطر ، ارتفعت ارادة التضحية .

– هذا اذا كان الشعب حياً . أحسنتِ تصوير الفكرة يا رانية ، انك حافظة أمثولة التاريخ جيداً .

لم افهم اذا كان مروان جاداً في طرح الموضوع ، بحدّ ذاته ، أم انه اغتنم فرصة اهتمامك ، ليتابع حديثه معك . اما انا فقد أصابني الضجر ، ولم أدر لم يحشر موضوعاً كهـــذا في سياق رحلة شئناها للترفيه . وفي مثل تلك اللّحظات ، كنت تنقلبين من طفلة برّية ، لم تستطع المدينة ان تدجّنها ، الى فيلسوفة ، واضحة الرؤية ، عميقة الغور .

كانت تلك الأويقات الوحيدة التي تنسيك نفسك ، وتخرجك من القفص لتحلّقي بحريّة ومرح . وكان مروان يفهم ، ولا يفوّت الفرصة النادرة .

ما كدنا نصل الى الغابة ، حتى هربتِ ، تدوسين فوق الثلوج ، وتفتحين جسدك وقلبك للشمس وللنسائم الباردة .

وأبصرتك حين وصلت الى جذع أضخم شجرات الارز . وقفت أمامها في وضع صليب ، وراحت أناملك تتحسس القشور ، وكأنها تداعب وجه حبيب . وظلّت عينا مروان تلاحقانك . ربما تمنّى أن تحوّلي حنانك اليه .

اقتربتُ منك ، فلمحت شبح الرعب في عينيك . وكانت يدك اليمنى تغطّي رقعة ، حفرت عليها كلمة « نمرود » .

لم أفهم معنى تصرّفك ، وماذا يعني الاسم بالنسبة اليك . ولما حاولت الاستفسار ، لم تجيبي ... صرفتِ فضولي بقولك :

ـ المعلوم المجهول .

ووضع مروان حدّاً لاسترسالنا وراء الالغاز ، حين اقترب من جذع الشجرة ، وراح يقرأ الأحرف المحفورة ، ويفلسف طموح الانسان وتعلّقه بالبقاء والخلود ، عبر الأفعال او الأقوال واضاف :

ـ ويجهل الانسان ، أنه يسجّل شهادة خوفه ، وتذلّله على أبواب الزمن .

وأجبته ساهمة :

ـ ولكن صاحب هذا الاسم لا يكتفي بحفره فوق لحاء الشجر ؛ ان بناءه يمتدّ عبر التاريخ . بدونه أعجز عن تصوّر الوجود .

فحوّل وجهه اليك يسألك :

ـ تعرفينه اذن يا رانية ؟

ومسحت قلقنا وتساؤلنا ببسمةٍ سطحية :

— من ؟ نمرود ؟ من لا يعرفه ؟ لسنا سوى حبّات حنطة على بيادره ، يذرّينا ، يغربلنا ، يتصرّف بنا على هواه .

قال مروان :

— عدنا الى الألغاز .. إنك تصفين القدر ، او أي امتداد جبّار لا يحدّه خيالنا ، ولا تحيط به طاقتنا الفكرية . ومهما يكن ، فانه يستأثر باهتمامك الى حدّ قصيّ .

وتمتمت شفتاك :

— من يصادفه لا يستطيع ان ينساه . ومن يعيه ، يقع في شباكه مدى الحياة .

وقاطعت حواركما متعمّدة المزاح :

— جئنا لنقفز فوق الثلوج ، وننسى محاضرات الفلسفة ... هيّا بنا ...

ورحت أعدو ، أسجل فوق الثلوج آثار قدميّ ، ناسية أن الشمس لن تلبث أن تمسحها تماماً كما مسحت السنوات الغابرة ، بكل ما حملته من متاعب وافراح ، حتى لم يبق منها سوى ذكرى ، أحاول بجهد أن أتعلّق بها ، وأسجّل فواصلها على الورق .

واذكر فيما اذكر ، ذلك الرعب في عينيك ، والذي لم أستطعْ أن أعلّله آنذاك . اسم محفور بالصدفة ، على جذع ارزة عتيقة ، أيقظ في ذاتك الماضي ،

بكل جراحه وآلامه ، وأعاد « السوط المزغرد » فوق رأسك ، حتى وأنت تهربين من دنيا البشر ، وتحتمين بخضرة الأرز ، وشموخه وخلوده .

ونجحت في حمل مروان على زورق ضياعك ، ولولا بسام ، ومعابثاته ، لتحوّلت النزهة عن غايتها الرئيسية ، أن تكون فرصة للهرب والمتعة .

* * *

وهربتِ يا رانية .

هربتِ من عائلتك ومن سطْوة نمرود .

كانت أوراقك هذه السبيل الوحيد للحماية ؛ ثم لم تلبث أن تحوّلت الى ثقل ، فتخلّصتِ منها كي لا تغرقك معها في بحار الظلام :

« كان صعباً علي أن انسلخ عنه ، حتى في تلك اللحظات الجائرة ، حين تزدحم في نفسي الكراهية ، ويضجّ صدري بشهوة الانتقام .

خيطه السحري يشدّني من عنقي ، ويربطني بوتد مغروز في صلب التربة صرت أفكّر جدياً بالطريقة الفعّالة للخلاص .

كنت اعتقد أنه جناحي ومنفذي الى الحرية ، الى الخلاص .

اعتدت اهتمامه في كل لحظة من لحظات أيامي . وكنت أتقبل معطياته ، واعتبرها مجانية ، مجردة عن الانانية ورغبة الامتلاك .

كنت أراه صديقي الحكيم ، ومركبي الى دنيا النور والطمأنينة ، بل السعادة . وها هي امي تكشف في جلسة مختصرة عن وجة الخديعة .

شعرت أن الطوق بدأ يضيق حول عنقي فأغمضت عيني على ظلام دامس ، مبطّن بالالغاز المستعصية الحلّ .

ها هو يطرق بابنا ، بل يدفعه ويدخل دون استئذان : السيّد المالك ، صاحب الحق في بيع وشراء المتاع . فات الأوان لاناقش والديّ الحساب . وحتى لو فعلت ، لن يدركا جوهر كلامي .

اقترب نمرود مادّاً يده بالسلام . حاولت الهرب فلم أفلح . أمسكني من يدي وجرّني اليه ، فشعرت بقوة يده فوق زندي ، ثم ، وبدون مقدّمات طوّق خصري بكفيه :

ـ كيف حال حلوتي الصغيرة ؟

راحت موجة الثورة والاحتجاج تسري في عروقي ، وفي أعصابي ، وتستنفر كل ذرة في كياني لدفعه عني والتخلص من قبضته .

ـ من أغضبك ؟ قولي .

ابتسمت امي ، وأحنى أبي رأسه صامتاً واستطرد هو :

ـ كبرت يا صغيرتي العزيزة . سرعان ما تمرّ الايام . ها أنت اليوم على عتبة أعوام النضج .

تأملتني أمي بنظرات مفاخرة ، وتزحزح أبي من مقعده ، ثم خرج لملاحقة بعض شؤونه .

كدت أصرخ في وجه نمرود : « أغرب عني » لكن الكلمات اختنقت في حلقي ونفرت الدموع من عيني .

ـ تبكين ؟ إذن حزرت ، أنت زعلانة ، من هو المسبب ؟

وجّه سؤاله الى امي . فصرفته بتمتمة متردّدة :

– لا أدري ؛ ها هي أمامك ، اسألها .

وأنا ؛ لم يكن عندي جواب .

تمنّيت لو أزول من الوجود في تلك اللحظة بالذات . لو تنشقّ الارض وتبتلعني ، لو تنفتح نافذة نور في هذه القبّة المطبقة علي بضبابها وظلمتها .

بدأت ادرك ان الخلاص ليس سهلاً . وفي غيبوبة اليأس ، رحت ألمح شظايا نور باهت في الأفق البعيد . قرأت خطوط النور وجمعتها فتحوّلت الى كلمة : روزينا .

ولكن الانسان لا يختار الجنون . الانسان العاقل ، المنتمي الى مجتمع العقلاء المتزني الخطى ، المنمّقي المظهر والكلام . مثل هذا المخلوق يعجز عن وطء عتبة النعمة .

وراحت كلماتها تزغرد في اذني :

« احترسي من الغد . اقتربت القأس من أصل الشجرة . والخوف يغلّ روحك ، ويشلّ حركتك. سوف تبقين أمةً ما دام سيفه مسلطاً فوق رأسك . »

وعادت الاسئلة تتراكم في ذهني ، لماذا دعتني اليها ؟ ..

وهل كان اعتراضها سبيلي خطوة لإنقاذي ؟

هل شعرت بأن الوقت قد حان لتتدخل ؟ وصباي المتفتّح ، هل كان اشارة تدلّها الى تخبّطي وضياعي ؟

وهل يعلم نمرود بان لها قدرة على تحويل مجرى الامور ، لذلك حرّم عليّ زيارتها ؟

فكرت بان الهرب هو خلاصي ، ولكن الى اين الهرب ؟ ومن لي بيد تمتد من خلف غياهب الظلمة ، تهبط علي من وراء ضباب المساء ، تشدّني وتنهضني من كبوتي ؟

مرّت أيام ، لم أذق خلالها طعم الراحة . وازداد نحول جسدي ، وبقيت روحي على تمرّدها .

كنت اعلم أن التراجع مستحيل . كذلك سبيل الهرب ليس ممهّداً . وعيون الثلاثة ترصدني . وانتظرت ليلاً شتائياً عاصفاً ، كثيف الظلمة ، فوقفت امام النافذة أصغي الى ولولة الرياح ، واسمع في تردد أصدائها نداء مجهولاً يأتيني من الدار الوحيدة التي لم تمحها الظلمة . دار روزينا .

* * *

طرقت الباب ، ففتحت لي وهي تمسح آثار النوم عن عينيها . ثم ، وكأنها على علم مسبق بقدومي ، أمسكت بيدي ، وقادتني الى مقعد بجوار موقد خبت ناره :

ـ كنت بانتظارك ، عافاك ، لم تخيّبي املي فيك .

أخذت يدي بين راحتيها ، وبدأت تفرك أصابعي المثلجة ، تعيد اليها بعض حرارة . ثم خفّت الى ركن من الغرفة ، فأشعلت « بابور » الكاز ، وراحت تغلي ماء وهي تتمتم :

ـ يلزمك فنجان ساخن ، عندي زهور مجفّفة جمعتها من ذروة الجبل .

سكبت فنجانين ، وجلست بقربي وهي تتفحصني بعينيها الصغيرتين ،

وقد ازداد بريقهما ، وتكثف سوادهما ، تحت قمطة الرأس الصارمة التي تجمع شعرها .

ـ لم تبارحي فكري طوال الايام الماضية . لقد اخبروك اذن . من ؟ أمك ؟ ابوك ؟ ام هو ؟

أجبتها بوهن :

ـ امي . وانت ، كنت تعلمين ؟

ـ اجل . جميع اهالي القرية يعلمون ، ولكن واحداً منهم لم يجرؤ على اخبارك . ثم للحشرية حدود ، ونمرود ليس سهلاً .

ـ وانت ، لماذا تسعين الى مساعدتي ؟ الا تخافين ؟

ـ انا ، لا خلفي ولا قدامي . ومهما فعل نمرود ، لا يستطيع ايذائي . اني ابعد مما تطال يداه .

ـ جئت اليك ، ولا أنوي الرجوع الى البيت .

ـ تعلمين اذن ، ان الخلاص الآتي هو في الهرب ، وأنت أضعف من ان تواجهيه على أرض المعركة . يبقى ان تنتظري الفرصة المناسبة .

ـ انصحيني يا روزينا . اسألي طيورك علّها تحمل حكمة تساعدني .

ـ وطيوري ، لن تطلّ ، قبل شروق الشمس . عودي الى البيت ، وتصرّفي كفتاة عاقلة . تظاهري بالاستسلام والهدوء . قومي الآن ، لأوصلك الى دارك ، هل علم احد بقدومك إليّ ؟

ـ طبعاً لا .

وابتسمت روزينا بسمة لا تخلو من الغموض . وهي تردّ الباب خلفنا :

– لا تكوني واثقة بنفسك الى هذا الحد . نمرود شيطان ، يمكن تبعك وأنت لا تشعرين .

– انت ايضاً تحسّين انه في كل مكان ؟

كيف استطيع الخروج من حدود دنياه الواسعة ؟

– قلت لك اتركي الامر لي .

وصمتت روزينا . ولم أعد أجرؤ على فتح فمي ، أو الجهر بأنفاسي . وأحسستني أغيب في تلك الظلمة الدامسة ، ويد روزينا تشد على زندي . تمدّني بقوة وحرارة كنت بأشدّ الحاجة اليهما .

كانت الدار نائمة ، كما تركتها ، فأسرعت الى سريري اندسّ فيه بين الاغطية الباردة . وشعرت بأن غرفتي تحوّلت الى حقل من الشوك والابر .

كيف أستطيع ان أقبض على تلك الدقائق الهاربة من الحاضر ؟ وكيف يسعني أن أصف ما عانيته من قلق وألم ؟

* * *

لا اذكر متى استسلمت للنوم . ولما عدت في الصباح ، الى دنيا اليقظة شعرت بأني أسحب جسدي من تحت كابوس خانق .

لبثت في فراشي ، أتلمّس الدفء ، وبصيصاً من نور يهديني الى طريق البداية . ولم تتح لي أمي الفرصة . دخلت الغرفة على رؤوس أصابعها ، ثم اقتربت من السرير تطمئن عليّ . تظاهرت بالنوم ، فلم أفلح في إقناعها ،

مدّت يدها ترفع الغطاء عن وجهي وهي تتمتم :

– تأخّرت اليوم على غير عادة ، شغلت بالي عليك .

دفعت اللحاف عني ، ونهضت بادية النشاط :

– صباح الخير . الطقس بارد . ربما هذا سبب تأخري في النوم .

– أبوك بانتظارك . ارتدي ثيابك ، وسارعي لتناول الفطور .

والبي لم يكن وحيداً . كانت ذبذبات الحديث تخترق الجدار ، وتتسرّب الى أذنيّ ، محمولة على لفحات الهواء البارد ، المخترق شقوق الابواب والنوافذ ، وستار الظلام المتخلّف .

ألقيت نظرة من النافذة ، فطالعتني جحافل الغيوم السوداء ، تزحف من الأفق الغربي ، شرسة ، متوعّدة .

في مثل هذا الطقس لن أستطيع أن أخطو خارج العتبة ، وسوف أبقى كرة يتقاذفني الثلاثة ، عبر أحاديثهم ، واهتمامهم بتخطيط أموري .

لمحت ، وأنا أخطو الى مجلسهم ، ان ركوة القهوة امام أبي فارغة ، وهذا يعني أن الجلسة بدأت منذ الفجر .

هبّ يتلقفني بين ذراعيه ، ويطبع فوق جبيني قبلة حارة . وتشجع نمرود حين ابصر الضحكة العريضة تنفرش فوق جبيني ، فمدّ يده مسلماً وظلت عيناه تخترقان عظامي :

– شغلت بالنا . تضحّيتِ بالنوم .

ـ هذا شأن الصبايا ...

عبارة عفوية من الوالد ، مسح بها الارتباك المعوسج بيننا ، واخذتُ البادرة في الحركة فدعوتهم الى الفطور وانا اعتذر عن تأخري .

لا أدري اذا كان نمرود ، قد لاحظ ولادتي الجديدة ، المصطنعة ؛ غير انه لم يبد اي اعتراض . وشاركنا الافطار بمرح ، وقد اكسبه الرضى جاذبية ورونقاً كادا يحولانني الى منابع العلاقة المخلصة ، ويوقظان ذكريات طفولية عذبة ، مسحتها صدمة الأمس ، وحولتها الى حقل سنابل داهمه الحريق .

شعرت ونحن نجلس الى تلك المائدة الصباحية الصامتة ، بأن التحوّل الذي اصابني وتسرّب الى جذور عواطفي ، وبات يتلاعب باعصابي ، لم يوفّره هو . تراه كان يمثل هو ايضاً ؟

لقد تخلّى عن سخريته وتحدّيه ، وبدا لعيني مستسلماً ينقاد الى ذلك الخيط السحري الذي يدعونه الحب .

كانت عواطفه ترشح من عينيه ، وتجاعيد وجهه ، وانفراج شفتيه . شعرت انه اشبه بعجينة لينة العريكة ، تتلاعب بها أصابع الحب ؛ او كأنه عاد طفلاً ، يتربّع فوق حضن امه ، يسبح في بحر من الدعابة والدفء والغنج .

« تظاهري بالاستسلام » هذا ما قالته روزينا .

وها أنا لا اتظاهر ، لا أمثل ، بل اخترق ستار النصح والتلقين ، لأندمج مع البطل .

وشعرت في تلك اللحظات اني بحاجة الى تمثيل عكسي ، وفكّرت بالسحر

و « الخط » تلك اللعبة الغامضة التي يلعبها المجرّبون ، ويجعلوننا نحن الصغار السذج وسيلة لهوهم وسخريتهم . ترى ، هل خطر ببال امي ان تذهب الى الحاج « مسعد » الشيخ الضرير الذي يمارس الشعوذة ؟ ...

وهل أنا ممثلة هذا الصباح ، ولكن على مسرحهم ، وهم يتلهون بمداعبتي ؟

كان الجميع مرتاحين الى سير الامور ، ولم أكن أختلف عنهم . وفجأة تذكّرت الفنجان الساخن الذي شربته من يد روزينا ، ووصفها نمـــرود بالشيطان . واذا كان شيطاناً ، هل تفوته زيارتي لها الليلة الماضية ؟ ام أنه قادني اليها ، تلك المرأة القابعة خلف جدران الأقاويل والحكايات ، لتسقيني من سحرها ؟ ما الذي اذابته في الماء ؟ من يخبرني عنها ؟ نمرود ؟ أسأله عن سر أخبّئه عنه ؟

أية قدرة له ، هذا الجني الجالس امامي مثل حيوان اليف بين يدي صاحبه ؟

ــ تعالي يا رانية ، أخبريني ماذا يجول في فكرك ؟

ــ لا شيء ... لا شيء البتة .

ــ الانسان لا يفكر بلا شيء . هناك دائماً أشياء ، تتجسّد في كلمات . وتكرّ على شريط أفكارنا ... أو تذوب في دموع تنسكب من مآقينا . وانت ، يبدو لي انك تفكرين باشياء جميلة ، جميلة جداً ، تزيد عينيك بريقاً ، وخديك احمراراً .. لا تخجلي يا حبيبتي ، قولي كل ما يخطر لك . صدري واسع كالبحر . وعيناي تحيطانبك ، تحضنانك ، كما تحضن السماء الارض.

اخبريني خواطرك الصغيرة البريئة ، يا وردتي البيضاء . لن يكون بيننا اسرار بعد اليوم ... هل تفهمين ؟

هززت رأسي ، موافقة ، ثم ، وكأنّ قوة داخلية انبثقت في صدري وراحت تدفع الكلمات ، سمعتني اسأله :

– لماذا أخفيت عني السر طوال تلك المدة ؟ لماذا خدعتني ؟

– انا لم اخدعك يا حبيبتي . عندما تختبرين الحياة ، سوف تعلمين انني مخلص لك ، ولكنك كنت صغيرة ، ولا تزالين ، ومن الصعب ان يدرك الصغار هذه الامور.

كنت اقف خلف سياج حديقتك ، واتأملّك تتفتحين مثل الوردة الجورية ، وأعد انفتاح البتلات واحدة واحدة ... لماذا أفعل ذلك ؟ لخداعك ؟ لا سمح الله يا رانية ! انا أحبك . وعفواً لاستخدام الكلمة ، للتعبير عن عاطفتي الجيّاشة ولكن حبي لك وشوقي الى احتضانك ليسا وليدي العاطفة وحدها .

أنت جزء من كياني ، وضمير ضميري . انت العبير في دنياي ، والموسيقى ، والنور .

قبلك ، كانت الارض ظلمة ، وموطىء قدميّ أشواكاً ومستنقعات عفنة ، ثم جئت ، فانقلب الكون ، زغردت الموسيقى في الارض الخراب ، وانهمر المطر وتنفّست التربة ، فانبتت الزهر والثمر . أتكلم بلسان الشعراء ، واحتاج الى ألف منهم لترجمة مشاعري نحوك ، وأمامنا المستقبل لتكتشفي ذلك .

كان يصب كلامه في اذني وكأنه يمليه على ورقة . ومثل ورقة صقيلة ، صرت ، حتى استطعت الثبات في مقعدي ، وتخيلت ان الكلام يمرّ عبري الى قطاع آخر . ومن هنا كان مصدر جرأتي :

– ولكن الحب لا يفرض من فوق ، انه ينمو في خطين متناسقين .

ـ لا أحاول ان افرض عليك شيئاً . ولا أنوي ان اطالك بمكروه .

انت النور الذي اشرق في ليلي المظلم . كيف يشعر النور وهو يضيء الظلمات ، ويفتح البصائر على الحقائق ، ويغني الوجود ؟

هذا ما لا استطيع تحديده . انت وحدك قادرة على الوصف .

ـ أنا فوجئت . خدعت . لم تحسب حساباً لارادتي . اخترتني حين كنت شتلة صغيرة ، وغرستني في حديقتك لترضي انانيتك ، ورحت تسيّج حولي ، وتكثّف السياج ، متجاوزاً نزعتي الى التحرر والانطلاق والاختيار . ولكنك شبهتني بالنور . الشمعة ، تذوب والمصباح يسجن في قفص من زجاج ، والمتفرّجون في الخارج يرقصون . أهكذا تريدني ؟

ـ لأكثر من ذلك اخترتك : ملكة على قلبي ، تاجاً فوق رأسي .

ـ وماذا عن السعادة ؟ تلك التي لا تشتريها العروش والتيجان ؟

ـ سوف نسعد معاً . أطلبي ما شئت يا أميرتي ، وكفي عن الجدال .

* * *

كانت تلك الجلسة منعطفاً هاماً في حياتي .

وبدأت أشعر بتغير كبير ، طرأ على ذاتي . منذ ان استيقظت ، وبعدما جرعت الفنجان الساخن من يد روزينا .

كم هي بعيدة تلك اللحظات !
تبدو لي الآن وكأنها جرت في حياة اخرى ، قبل حياتي الارضية هذه . واحياناً افكر ان روزينا سحرتني وشدتني اليها في تلك الليلة . اي اني لم اذهب في حالة وعي ، بل في حلم .

كيف تخطر ببالي هذه التصورات ؟ هل أختلقها ؟ الامر يختلط عليّ الى اقصى حد . ومع ذلك ، روزينا ما تزال حيّة ترزق . انها اليوم عجوز على عتبة الثمانين . تعيش وحدها . وأنا ازورها دائماً وأجلس على سطح كوخها الصغير ، أتأمّلها ، وهي ترشّ الحبّ للعصافير ، وتناغيها ، وتروي لي الحكايات .

واحدة من حكاياتها لا تفتأ تعود الي ، تهزّني ، واحياناً توقظني من النوم .

انها حكاية الطائر الأخضر . روت لي ان الطائر عاد اليها في الربيع الماضي . وطلب منها ان تستعد للقيام برحلة طويلة بصحبته . لم تخف دهشتها من هذه الدعوة ، واعتذرت إذ ليس لها جناحان . فضحك وهو يرفرف حولها . وأجاب : « سوف ينبت لك جناحان . لا تخافي يا روزينا . متى حان الوقت ،

لن تعجزي عن الطيران »

وروزينا صدقت الحكاية ، وهي تتوقع نمو الريش في ساعديها كل يوم .

امرّ بذكر روزينا لأنفذ الى قصتنا .

لقد تحولت نظرة نمرود الى صداقتي لها منذ تلك الليلة . لم يعد يخشاها . بل صار يسألني لأقوم بزيارتها ، وأسليها ، واخفف عنها ثقل الوحدة والشيخوخة . وذهب الى ابعد من ذلك حين طلب الي ان اسجل كل ما ترويه لي واحفظه : « انها مدرسة عميقة » . هكذا قال نمرود « واريدك ان تستوعبي كل ما تعلمك اياه » .

« قليلون جداً الذين استطاعوا اختراق عالمها ، وانت نلت رضاها فاغتنمي الفرصة » .

لم اسأله تفسيراً لتحوله .

لم اعد اناقش او اجادل . ارتميت في ذلك البحر العميق ، تتجاذبني امواجه فترفعني الى ذروة السعادة والتوقع ، او تهوي بي الى اسفل درجات اليأس .

روزينا باتت اقرب الي من ذاتي ، وهي التي طلبت من نمرود أن يرجيء موعد الزواج حتى أصبح في مرحلة من النضج ، تخوّلني حمل المسؤولية .

وفي ذات صباح ، فاجأني بسؤاله :

ـ الا تنوين متابعة دراستك ؟

ـ لماذا ؟

سألته ، وقد ملأني العجب .

لم يكن مألوفاً عندنا ان تتطلع الفتاة الى ابعد من حدود دارها . كما ان الزواج هو الهدف الاهم والنهائي . وبالنسبة الي ، كان الامر مقضياً .

لا لم أعد أعاند أو أجادل . رضيت بالواقع . وقعت في الفخّ ، ولا سبيل الى الإفلات . اقول هذا الآن ، من بُعدٍ زمني ، جعلني أرى الاشياء بنظرة مختلفة ؛ اما في ذلك الحين ، فقد كانت الطمأنينة تملأ صدري ؛ والرضى يغمر وجودي .

وعاد هو يؤكد :

ــ العلم يزيدك خبرة ويعطينا فرصة للتفكير .

ــ الا تحسب حساب فقداني ؟ اعني ، الا تخشى ان تضيعني اذا ما خرجت من القرية ؟

ــ لا . اينما ذهبت ، فسوف تعودين اليّ .

كان في جوابه نفَس الواثق من الحاضر والمستقبل . كلامه ، لا يتفوّه به الا من كان مؤمّناً على كل ما يتعلق بالوجود . من عواطف ، وافكار ، وتحوّلات جسدية ونفسية .

وبالنسبة الي ، كانت هذه الفرصة الجديدة ، زورق الخلاص ، يبعدني لمدة عن الصراع الداخلي ، في البيت ، وصراعنا نحن الاثنين ، بين خطّي الرفض او القبول .

وتكفّل هو بكلّ ما يتعلق بتكاليف الدراسة والعيش في المدينة .

كنت سعيدة ، وأنا أتلمس جدران المنزل قبل مغادرته وألقي نظرة وداع على غرفتي الصغيرة ، وافكر بأنني لن أعود اليها . واذا ما عـدت الى العيش في القرية فسوف تكون حياتي الى جانب زوجي ، في قصره الفريد .

وعشت أيامي في الجامعة جسداً تحرّكه من بعيد قبضة ذلك المارد المنتظر رجوعي اليه ، مكتملة النضج ، راجحة العقل ، نقية الروح ، تستحق الدخول معه الى سر الزواج المقدس .

وصرت كلما بعدت بي الخطوات في عالم التحصيل المدرسي ، ارتفع الجدار بيني وبين ماض لم استطع ان اخلعه من وجودي ، كما لم اقو على حمله فوق منكبيّ .

كم علّقت الرفيقات على انحناء قوامي خلال المسير او القعود .

كانت أحمال ثقيلة تشد بي ، تثبتني بالتراب ، تغلّ روحي ، وتمنعها من التحليق .

كان من المعقول انتـاعدني الكتب على استعادة حريتي .

هكذا تأملت وبهذا حلمت ، غير اننا لم نشهد بداية وجودنا ، كذلك يبقى تصرفنا ، في هذا الوجود ، محدوداً ، مقيداً ضمن نواميس من خلق السوى ؛ وكان نمرود واحداً من تلك القوى التي تقبض على طرف اللجام ، فتطيل لي وتقصّر المسافة ، كما تشاء .

وأتساءل الآن : هل كانت العلاقة التي تشدّني اليه نابعة من الحب ؟ وهل حبي له هو الذي حال دون انجرافي في حب مروان ، او سواه من الطيور التي حامت حولي خلال سنوات الدراسة ؟

هنا اعجز عن الاجابة .

كنت مقيّدة به ؛ منه ابتدأ حبل الوعي ، وفي يده النهاية . واستطاعت تلك العلاقة ان تغلني ، وتقيّدني ، وتبقيني رهن ارادته .

واذا ما استعرضت عواطفي من البداية ، اكتشفت انني في الطفولة أحببته ببراءة ونقاء ... اعجبت به ، وبكل ما يمثله . وكنت أفهم تصرّفاته ، واخضع لها ، واطيعها بمحبة ، وسعادة . كان يشرع لي ابواب العالم ، ويدعوني الى ولوجها باباً بعد آخر ، وأنا ضائعة في أجواء الدهشة ، والفرح ، واكتشاف المجهول .

صرت أكبر على يديه ، وتتفتح عيناي على وجوده .

اصبح بالنسبة اليّ ظاهرة طبيعية ، مألوفة ، مثل شروق الشمس ، وشموخ الشجر ، وعويل العواصف ، وهطول الامطار .

اذا تساءل المرء : هل أحب الشمس ؟ هل احب العواصف ؟ وما مدى غرامي بالمطر ؟ بماذا يجيب ؟

هكذا لا أستطيع الاجابة ، عن موضوع الحب في علاقتنا .

اما التحوّل الفجائي الذي جرى في تلك الليلة ؛ فقد كان اقوى مني .

لا ادري اذا كان الناس ما يزالون يؤمنون بالرقية والسحر ، وتأثير البشر بعضهم على بعض .

انا اؤمن بذلك ، ولا استطيع ان اقدم برهاناً علمياً .

انما اثق ، كما اثق بوجودي ، بانهم سحروني . من هم ؟ لا ادري . لا احد

يستطيع ان يشرح لي ذلك . ربما كانت روزينا شريكة نمرود . وربما دخل والداي في المؤامرة . هذه الامور مألوفة في قريتنا ، تعيش مع الناس ، تأكل وتشرب على موائدهم ، وتبهّر احاديثهم . يتقبلونها بدون شك .
رب قائل : ليس جديراً بي ، وبعد كل تلك المرحلة البعيدة في دنيا العلم ، والمدنية ، ان اذكر هذه السخافات .

ولكن كيف أقوى على تفسير تلك الاشراقة التي حلّت فيّ ، بعد ليلة شديدة العصف ، مدلهمة الظلمة ؟

ما الذي جعلني اعود الى قبول ما رفضته ، وما ثرت عليه ؟

ما الذي يجعلني في هذه الساعة أتحدث بهدوء ، وبعض طمأنينة ، عن موضوع كان من المعقول أن أقيم من اجله ثورة ، تجرفني وتفنيني ؟

بعد تلك الصبيحة ، كنت اشعر في اعماقي ، ببقايا ثورة ، بفلول جيوش الرفض . ولكنها كانت تمشي بتسكّع ، وتعب ، محنية الرؤوس ، مهيضة الاجنحة ، غير قادرة على رفع حبة خردل ، بينما طَفَتْ فوق سطح الوعي تلك الفقاقيع الملوّنة ، وكلها تعكس وجه نمرود ، بكل اشراقه ووعوده .

وكلماته ، التي جهدت في البدء لأستطيع تقبّلها ، لم تلبث ان تكاثرت وتناسلت وطغت على عاطفتي وكياني . ورضاه على روزينا ، اعتبرته يوماً ، محاولة من محاولاته لعدم اعتراض سبيلي ، وفعل ما أرغب به ، والخضوع لما اشاء . ولم يخطر لي بانه كان شريكاً لها ، بل كانت سكرتيرته اذا جاز لنا استعارة هذا التعبير .

وهكذا صرت واقعة بين حدّين : طاغية ، ومجنونة ، تربطني بكل منهما رابطة حميمة ويشدّني اليهما سرّ الوجود والبقاء .

الحُلم

ـ لا لست طفلة . انت الآن فتاة ناضجة ، هل فهمت ؟

ـ اترك لي عالمي الهادىء ... ارجوك انصرف عني .

ـ عالم الهرب والخيال ؟ ... ايتها الجبانة الغبية ... من مسافة قرون عدت اليك لاصرخ في وجهك ، أدعوك الى الحياة . وانت ارتضيت هذا العيش على الهامش ... العيش في كنفه ، تحت سوط الجلاد وفي ظل العبودية . اخرجي الى نور الشمس . تعالي ، مدّي يدك اليّ .

ـ وأنتَ ، اين كنت طوال سنوات ؟ لماذا تواريت ، لتعود الي الآن ، بعد فوات الأوان ؟ انصرف يا هاني . صرنا غريبين . أنت لا تعرف عني شيئاً .

ـ بل أعرف عنك الكثير .

ـ كذاب .

ـ الكثير ، هل سمعتِ ؟ لم أفارقك لحظة ، وكنتُ انتظر الفرصة المناسبة .

ـ مُراءٍ ، انصرف قبل ان أرفع صوتي وأوقظه .

ـ أتحداكِ ان تصرخي . نمرود لم يعد يخيفني . كبرت انظري اليّ جيداً .

ـ بل انك ما تزال تمتطي حصان القصب ، تماماً كما بدوت في تلك

الصبيحة .. سوف تبقى الصبي الذي لم يكبر يا هاني . والآن ابتعد عني ... والاّ ...

– والاّ ماذا ؟... ومهما بعدتُ ، سوف ابقى في حياتك ، صوتك الداخلي ، حقيقتك الصارخة في اذنيك ليلاً نهاراً . ومهما هربتِ مني ، فلن تبتعدي كثيراً . إني جوهرك المكبوت الذي حاولتِ إخفاءه طوال سنوات ، ولم تجرؤي ان تشهريه سلاحاً في وجه اعدائك .

حتى الآن ، لا يبصر الآخرون منك سوى سراب كيانك . وحدي اراكِ في الماضي والحاضر والمستقبل ... وكم تضحكني صورتك في المستقبل ، وانت تتكوّمين ، قفّة عظام ، وحولك يصفّر الفراغ .

– أخرج من وجهي أيها العفريت . الا يكفي انك تخلّيت عني ، فعدت الآن توقد النار في الرماد .... لن أصغي اليك ، وانا راضية به ، نمرود زوجي .... زوجي أمام الله والناس . أعيش في قصره سعيدة هانئة . حبّـــه أسوار حول قلبي ، وفضله يطوّق عنقي .

– كذّابة ... شخصيتك الاجتماعية تتفوّه الآن بعكس ما يسجّله القلب والضميـــر .

تجهدين يوماً بعد يوم في رفع جدار الكلس بينك وبين مشاعرك الحقيقية . ويسعدني ان أراقب النتيجة وأعلم لمن ستكون الغلبة . الحب لا يحصر في قمقم . شعلته تتوالد ، وبالتالي تفجر الإناء الذي يحتويهـــا .

الآن أمضي ، وأنا مطمئن الى اني حقّقت ما أصبو اليه من نجاح . يكفي أني أثرتُ دموعك المتحجّرة ، وهززتُ جدران قلبك المثلج . سأتوارى

مرتاحاً ، ولن تبصري وجهي بعد اليوم .

سوف أتغلغل في ظلمة الكون ، وستعمش عيناك وهما تبحثان عني عبثاً .

أتيتُ اليك حاملاً رسالة ، وكلّمتك بصوت الغد ، وخيّمت فوقك كغمامة صيف ، لأذكرك بأن الحياة ليست صيفاً كلها . ولن يلبث الخريف أن يطرق بابك فماذا خزنت له ؟..

* * *

قفزتُ من السرير هلعة ، ورحت أتلفّت في جوانب الغرفة ، باحثة عن هاني الذي ارتدى وجه مروان واستعار صوته .

كنتُ واثقة انه موجود في مكان ما من الغرفة . لا يُعقل ان يكون قد خرج بهذه للسرعة . ثم ان الباب موصد ... ولم أسمع حرتقة فتحه . وحين عدت الى وعيي تذكّرت اين أنا . وشكرت الله ان الحوار جرى في الحلم . لكنه حلم أوضح من اليقظة ، وأعظم وقعاً وأبعد اثراً .

جلستُ امام المرآة ، أتأمّل شعري المشعث ووجهي المذعور وعينيّ التائهتين وأتساءل :

ــ اين هاني ؟... وماذا جــرى له ؟ هاني الذي ابعدتني عنه تهديدات نمــرود .

اقتلعني من عالمه العذب صراخ نمرود . كان يخشى عليّ منه . ولم يكن هاني سوى صبي صغير ، وكنا نلعب ببراءة ومرح . وكبرت في ظل نمرود وهاني سافر . من زمان سافر ، فلماذا يعود اليّ الآن ؟.

كيف أصبح وجهك يا هاني بعدما صرت في طور الشباب ؟.. لا أستطيع ان اتميّزه ، لذلك أعرتك ، في اللاوعي ، وجه مروان ، وكنتُ طوال الوقت اعتقد اني نسيتك ومحوتك من حياتي ... من ذاكرتي ، يا هاني !...

▫ ▫ ▫

اليقظة تمحو عادة كل ما يعلق بالذاكرة من آثار الحلم واوهام النوم .

أما ذلك الحلم ، فلم يسبق أن عشته مرة من قبل . كانت آثاره بادية فوق وجهي ، في الهلع القافز من عينيّ ؛ في الغليان بين طيّات صدري ، وفي استفاقة شياطين الشكّ والتساؤل في ذاتي : من أنا ؟ من اكون ؟ الى متى أمضي في حياة لم أخطّط لها ، وفي مسيرة لم اختّرها ؟

لم تكن لي حرية الاختيار لدى دخولي القفص ، فلأحاول ان أخـــرج منه على الأقل .

كنت في غيبوبة طويلة ، ولم أحسب حساب اليقظة . وها هي آتية . أبصرها من خلف هذا الصوت الشبيه بصوت النبوءة . بل ان بعض الاحلام تقرب من ان تكون نبوءات . وكأننا نقفز من فوق كتف الحاضرونجتاز متاهات الزمن ، وتنهار الحدود أمام قفزات سحرية غامضة ، تحملنا لنبصر الغد ، وليس الغد كله، ونشهد بعض احداثه ، وتقع ابصارنا على زواياه المضاءة . اما الجوانب الخفيّة ، والخبايا المعتمة فلا نفطن لها .

▫ ▫ ▫

كانت صورة الحلم تتراقص في ذهني وتختلط بضجيج المدينة ، والمشاهد الواقعية المنهمرة علي من النوافذ الموصدة والجدران الداكنة حولي . وكنت

انتظر مرور سيارة تنقلني مع حقيبتي الى الجبل ، الى قريتنا . الى نمرود .

وكانت الحقيبة ، تضمّ مـــع الثياب ، رقعة بيضاء كبيرة ، خطت فوقها بأحرف جميلة ، شهادة تخرجي من الجامعة . تساءلت :

ماذا أفعل بهذه الرقعة ؟

ماذا سيفعل بها نمرود ؟

وخيّمت سحابة كثيفة على عينيّ . هبط عليّ الواقع والمستقبل بكل ثقله . وشعرت انني أطرح السؤال على نفسي بجدّ ، ولأول مرة :

ـ هل أستطيع حقاً ان أواجه الواقع ؟ وهل تكفي هذه الرقعة سلاحاً ؟

وزعقت في داخلي أصوات غريبة :

ـ تمرّدي عليه . اتركيه .

وتحوّلت الشهادة الى علم من أعلام التمرّد وراحت تلوّح لي باغراء :

ـ بامكانك الانفصال عنه ، والعيش خارج اسوار داره ... قليلاً من الحـــرأة .

وانتفض صوت آخر يحتج :

ـ وأهلك ؟ وعهد ابيك وقلب أمك ، وأيام الطفولةوالذكريات الماضية ؟ وهذه الشهادة ما كانت لولاه . تعقّلي وعودي .

وبكى الانسان في ذاتي :

– لن أقوى على مواجهة الغد .

وانبرى له وكيل نمرود :

– هو قوي ، يده تسندك ، وعينه تسهر على رعايتك ، وماذا تطلبين من الوجود ؟ انه مستعد ليقدم لك العاطفة ، والحب ، والرفاهية .

وتضيف شفتاي باستسلام :

– والعبـــودية .

ويعود الصـــوت :

– الحرية اين هي ؟ هَلْ أبصرها انسان ؟ هي كلام يتسلّى به المحرومون. طيف يداعب مخيلة السجناء ، طائر يرفرف متنقلاً بين الأجيال. ولم يستطع واحد الادّعاء بالقبض عليه وامتلاكه . الامتلاك عكس طبيعة الحرية .

وتوقّفت سيارة أجرة امام باب المعهد . اقتربت أسأل السائق اذا كان باستطاعته ان ينقلني الى الكاراج . وفوجئت بمروان يجلس في المقعد الخلفي . ثم ترجّل بخفّة فخطف الحقيبة ووضعها في صندوق السيارة ، وشدّني من يدي الى الداخل ، دون ان يترك لي فرصة الاستفهام عما يجري .

ولم يتطوّع هو بالكلام .

وراحت السيارة تنهب الطريق باتجاه الجبل .

ظلّ مروان صامتاً . وكنت مرتاحة بقربه كما لم أذق راحة من قبل . ولم أتحرك أو أحتج حين مدّ ذراعه وجعلها مسنداً لظهري .

كنت تعبة ، ضائعة ، قلقة ، وها أنا ألقى في بحيرة الطمأنينة والراحة .

ولكن الى أين نمضي ؟

سألته ، وأنا أتمنى لو أنه لا يجيب ؛ ويستمر تحرّك العربة بنا ، باتجاه المستقبل الغامض والمغامرة المجهولة .

ثم عاد العقل يتكلم :

– توصلني الى الكاراج . من فضلك . أهلي بانتظاري .

لم يجب . بل لم يبد عليه انه سمع او فهم ما أقول .

وكان السائق يتحرّك بثقة المدرك لوجهة سيره .

انتظرت ان أُصاب بالذعر ، ونحن نغادر حدود العاصمة ، ونبدأ تسلّق التلال . لكنني فوجئت بهدوء أعصابي . كان سحر مروان يسطو علي ، ويحرّك عاطفتي في الاتجاه الذي يريد .

حاولت ان اغلّف الجو بالفكاهة فسألته :

– عملية خطف يا مروان ؟... أرجوك ، لم نعد في طور المراهقة ، اننا على ابواب الحياة الكبرى . هل نسيت أننا تخرجنا من الجامعة ؟.

وظل « أبو الهول » على صمته .

وهبّت علينا من أحراج الصنوبر نسمات باردة منعشة . ثم راحت الصور الطبيعية تتلاحق أمام عينيّ ، فتكاد تنسيني ما أنا فيه ، وتوقظ في ذاتي شعوراً غريباً يشدّني الى الارض ، وأتعلّم بعض استسلامها ، وأكفّ عن طرح الاسئلة ولو الى حين .

كنت أعرف مروان ، الزميل العاقل الرزين . ومهما فعل ، فسوف يبقى تصرّفه ضمن حدود شخصيته هذه .

اختار هو الصمت، وتركني أقتدي به ، وأتحاور مع أفكاري طوال نصف ساعة . مسافة الرحلة من بيروت الى «كفر الشير» .

أوقف السيارة امام منزل جبلي قديم ، تحيط به حديقة غنية ، ونقد السائق أجره . ثم انفكّت عقدة لسانه :

ـ هذا بيت عمّي ، ونحن مدعوان للإقامة عندها بضعة أيام .

ـ ولماذا «نحن» يا مروان ؟ وأنا معك بأية صفة ؟ وماذا يقول الناس ؟ بل بماذا تفكر عمتك ؟ وكيف أفسر غيابي لوالديّ ؟...

ـ لا دخل للناس فيما بيننا . أنت معي بصفتك زميلتي ، ورفيقتي المختارة ، المفضّلة ، والمحبوبة اذا شئت ...

رانية ، لا تحاولي التمثيل عليّ ... أعرف انك لست مشتاقة للعودة الى قريتك، بهذه السرعة ... وبامكانك تعليل غيابك بأكثر من سبب .

ـ ولكن وجودي هنا ، لأية غاية ؟

عاد زنده يغمرني بعطف ، وهو يقودني عبر باب المنزل ، ويردد :

ـ اسألي نفسك، يا رانية . أعلم جيداً انك تحبين ان تكوني بقربي . وهذه فرصتنا الذهبية لنحاول التقارب والتعارف ، بعدما كان ذلك مستحيلاً أيام الدراســة .

هذه اجازتنا يا رانية ، قبل ان تسترّدك القرية ، ولا اعود أطالك . ويا

رانية . ابحث عن صورتك الحقيقية منذ تلاقينا . وجهك الآخر الذي لم تكشفي عنه مرة طوال سنوات الجامعة . وجه المرأة التي تقوى على مشاركة الرجل الحب والحيـــاة .

* * *

كانت عمة مروان بانتظارنا عند الباب . امرأة طيّبة في العقد الخامس . ترمّلت قبل سنوات وعاشت من اجل وحيدها الذي يتابع دراسته في الخارج.

راحت تكرج امامنا في جوانب البيت ، تريد ان ترينا كل زاوية ، أن نطلّ معها من كل شرفة ونافذة .

وأعادتني المناظر الطبيعية ورائحة الارض الى أجواء القرية ... الى ذكريات نمـــرود .

انه يعد الأيام بل الدقائق واللحظات ، ولن يفوته تمرّدي . ولكني مع مروان ، غارقة في دنيا الراحة والاستسلام العذب ، وفي شعور يقرب من السعـــادة .

كنت اقنع نفسي بهذه الافكار والمشاعر ، كي لا أقفز عن الأرض المكهربة ، ولا انتفض تحت المياسم الحامية ، ونار الذكريات .

وبقي معلّقاً في الهواء ، عند نهاية الطريق ، السؤال الكبير :

وبعـــد ؟ .... ماذا ؟ .

* * *

المكان مثالي لقضاء العطلة . ومنزل السيدة بشرى ، عمّة مروان ، منعزل عن سائر المساكن بواسطة حديقته الواسعة ، المشرفة على البحر ... وأنا فيه ، غريبة ، بعيدة عن كل ما يربطني بالماضي ... بوجوه الناس . بالأصوات المألوفة ، ولماذا لا اغتنم الفرصة ، للاقتراب من مروان ؟..

كنت أعالج هذه الافكار ، وأتذكّر كم هربت منه في السنوات الماضية .. وأقتفي خطى العمة الى غرفة صغيرة، خصّتني بها ، وطلبت الي ان أوضب فيها ثيابي .

ولـــم َلا ؟....

لماذا لا أرتمي في هذا الحلم الجميل وأنسى قيودي ، وارتهاني ، واطلّق الماضي ؛ وليفعل نمرود ما يحلو له .

تركتني العمّة ، وانصرفت الى المطبخ . وأغلقت الباب خلفها ، ثم ارتميتُ على السرير ، وغرقت في تأملاتي :

ــ اذن مروان يفهمني اكثر مما قدّرت . كان يتابع دروسه ، ويواكبني بجزء من وعيه . ولم يفته هربي منه ، ومحاربتي لكل المشاعر التي تحرّكت باتجاهه ، طوال سنوات الدراسة .

وها أنت هنا ، يا مروان ، تحقق الحلم ، او تحاول .... وتغرقني في

أمواج الشك والحيرة . تقدم لي اهتمامك وحنـــوّك . تفتح لي الباب ، وتدعوني الى الدخول ، الى حياة الحب ، والمشاركة السعيدة .

وهل تعلم من أكون يا مروان ؟ هل حاولت مرة ان تبحث عن سبب هربي الدائم منك ؟...

أية قدرة دفعتك الى طريقي في هذا النهار بالذات ؟ في لحظة الضعف الحاسمة ، والضياع . كيف رضيت ان تنعطف بي ببساطة ،وتقودني في طريقك وكنت من قبل أتجنبه كما لو كان شركاً ؟ .

تابعت تقلّبي في مجاهل التساؤلات ، الى ان اعادني الى الواقع نقر خفيف على باب الغرفة ، وصوت مروان :

ــ الغداء جاهز ، والعمّة بانتظارنا يا رانية .

انتفضت مذعورة : هذه أنا ؟... أم بطلة في أحد الافلام الغربية ؟ وانا في بيت غريب ، وصوت شاب يناديني ، يدعوني الى الجلوس بقربه ، الى المائدة و .... كيف أتصرف ؟....

وارتفع صوت بعيد من داخل جدران الوعي :

ــ إنه مروان .... وهو ليس غريباً ، قومي ، واتبعيه .

وأجبته ، بصوت اجتهدت ليأتي طبيعياً :

ــ لحظة يا مروان ... ها انا قادمة .

وابصرته ، حين فتحت الباب . كان واقفاً في الطرف الآخر من الممشى ، وقد ادار وجهه ناحية الجبل .

وفكرت : أجل . هذا مروان . وليس الحلم . وتساءلت : هل أحبه ؟.. وبقي السؤال معلّقاً في الهواء .

ومروان يتمتع بالجاذبية ، والقوّة والذكاء . وباستطاعة أية فتاة ان تعشقه وتفخر برفقته . وانا وضعي مختلف .

طرحت السؤال بطريقة اخرى :

ـ لو لم يكن هناك نمرود ، أو كنت أحببت مروان ؟

ومرة اخرى لم أستطع ان اجيب . ما معنى الحب ؟ وهل يمكن تحديده في لحظة ؟ في كلمات ؟ في مواقف معينة؟ يكفيني الآن اني أخوض غمار التجربة . وأحسّ بالنشاط يسري في عروقي ، ويدفعني الى حضن هذه الغرسة الجديدة . وتعهّدها . سوف أساعد مروان على كسب معركتي ضدّ قيود الماضي ... سأنفّذ مشيئتك يا مروان ....

استدار حين سمع وقع خطواتي . وربما سمع دبيب أفكاري ..

أمسك بيدي وقادني الى الشرفة وتهادى الينا صوت العمة من المطبخ :

ـ لحظات ويكون الطعام جاهزاً .

وهفّت الينا ، مع صوتها ، رائحة طعام شهي . وعلّق مروان :

ـ العمة طاهية ماهرة ..... وأنت ؟

ابتسمت دون ان أجيب . لم يخطر لي من قبل ان أطرح مثل هذا السؤال على نفسي .

واستطرد مـــروان :

ـ ولكن الطبخ حاجة هامة ... انه جسر السعادة الزوجية ... وضحك بصوت مرتفع ، وبقيتُ صامتة . فربّت يدي وعاد يهمس بصوت حميم :

ـ لا تخافي يا رانية .... الطبخ آخر ما يخطر ببالي حين نكون معاً .... ولكن اخبريني ، هل أعجبتك غرفتك الصغيرة ؟

ـ إنهـــا رائعة .

ـ وتشرف على منظر أروع .

ـ لم يتسنّ لي ان أطلّ على الخارج . كنت منصرفة الى ترتيب حاجاتي .

كذبت . كان علي ان أعترف له بالحقيقة . باني عاجزة عن الخروج الى الأجواء المرئيـــة .

وتـــابع :

ـ سوف تحبّين هذا الجبل . إنه ملجاي كلما شعرت بالتعب ، والتوق لأكون مع نفسي ، وقريباً من الله . والعمّة تتيح لي هذه الفرصة ، بوعيها وعدم تطفّلهـــا .

ـ إنها امرأة لطيفة .

وقد أحببتك كثيراً يا رانية .

ولا أدري ما الذي جعلني أتمادى في الحوار واقول :

ـ ويبدو انها معتادة على استقبال صديقاتك .

صفعه كلامي ، واحتقن وجهه ، ثم افتعل البساطة وأجاب :

ـ تقصدين أصدقائي ... اجل هي في مكانة والدتي ، وهذا بيتي ... لم أخبرك من قبل اني نشأت يتيم الأبوين ، فاحتضنتني العمّة ، وربتني مع ابنها .

ونفض مروان رأسه عائداً من ذكريات ماضية وتمتم :

ـ علينا ان ننطلق من الآن يا رانية ، من الحاضر ، لنبني المستقبل ، ونحن مجهّزان لذلك بالعلم والمحبة والتفاهم .

ـ ولكن ، من يمكنه ان يقتلع الماضي يا مروان ؟ يقتلع جذوره ويبقى حيـاً ؟...

ـ لا يبدو لي أنك تسعدين بذكريات ماضيك . اذكر وقفتك امـام شجرة الارز ، ولا أستطيع ان أنسى ذلك المشهد .

ـ كنت أمثّل يا مروان . أحياناً ينجح التمثيل حتى لتظنّه الواقع . الحقيقـة .

ـ أنت تمثلين الآن ، تمثّلين عليّ ، ولن أسمح لك بالمتابعة .

أعرف انك تهتمين بي يا رانية . وفي قرارة ذاتك تخصينني بالمكان الأقرب من القلب . لكن تلك الزاوية الحميمة مسوّرة بطبقات من الكلس والجليـد والحجارة . سوف أمد يدي ، وأحاول ان أذيب الجليد ، وأفتّت الحجارة ، وأغرف من كنوز عطائك .

ـ خيالك خصب يا مروان . وكلامك جميل ولكن .....

ـ لا تقولي شيئاً . دعيني وحدي أتكلم . صمتت طويلاً . كانت هناك

الدراسة والواجبات ودرعك الواقي .... أما الآن فأشعر بالانعتاق والتحرر .

كنت كلما فكرت بالمستقبل ، لا أستطيع تصوّره بدونك ..... طويلاً حلمتُ بكِ ، ومنذ امد بعيد وأنا اخطّط لتحقيق هذا الحلم ، وها هو ملك أيدينا فلا يجوز ان ندع الفرصة تفوت .

فقط ، أريد ان تصارحيني :

هل أنت مرتبطة بأحدهم ، في قريتك ؟ واذا كان الجواب « نعم » فهل تحبينـــه ؟...

كان يتكلم ، وأنا أصغي ، دون أن تكون لي رغبة في الاجابة .

وأطلّت العمة ، تدعونا الى المائدة ، فوضعَت الخاتمة لكلامنا .. وتابعت ترحيبها بي ، وهي تسكب الطعام في صحني ، وتصرّ على أن أتذوق كل الاصنـــاف :

ـ أرجو ان تعجبك الاقامة معنا ، يا رانية ، فتكسبك طوال اشهر الصيف.

شكرتها وأنا اتمتم عبارات مجاملة ، واؤكد لها اني مضطرة الى اختصار الزيارة ، حتى لا أشغل بال اهلي ... وعادت تلحّ :

ـ نتصل بهم بالتلفون ، ونطلب لك إذناً .

ويبدو أن الفكرة أعجبت مروان فأضاف :

ـ أنت بحاجة الى الراحة ، ودار العمة بشرى خير مكان لتأمينهـــا ... اسألي مجرباً .....

وأجبته حاسمة الامر :

– هذا مستحيل يا مروان .... أقضي الليلة هنا ، وفي الغد اعود .

وتدخّلت العمـــة :

– لن تتحركا من هنا قبل اسبوعين ... والآن لنترك النقاش في هـــذا الموضوع . الكلمة الاخيرة للمضيفة ...

أطربت لطفها وضيافتها ، وانصرفت الى تذوّق طعامها الشهي ...

وما كدت أعود الى غرفتي حتى قفزت في وجهي التساؤلات :

– ماذا أفعل هنا ؟ وما هي العلاقة التي تشدّني الى مروان ؟ وهل أحبّه ؟..

وكنت قد هربت من مواجهة هذه الاسئلة طوال السنوات المنصرمة . وظل هو يتقرّب مني ، ولا يثنيه تجاهلي لوجوده ، وعدم اكتراثي لعواطفه .. وها هو يعود فيطاردني ، وتلذّ لي اللعبة ، فماذا أسمّي ذلك ؟

وهدر صوت بعيد في أعماقي :

– التسمية ليست هامة . اغتنمي هذه الفرصة لتهربي من القبضة المطبقة على خناقك . وتذكري ما ينتظرك لو عدت اليه ...

وتململ في صدري شعور مرهف وغريب . ابصرت خيطاً رفيعاً من الحنان ، يشدني الى جذور شجرة السنديان في قريتنا ، وأجبت الصوت الداخلي :

– لن أستطيع البقاء هنا ... لا .

وجاءني السؤال ساخراً :

– ولم بالله عليك ؟

– لانه لن يتوانى عن مطاردتي ولو طرت إلى أقاصي المعمور . سوف يظلّ يبحث عني الى ان يسترجعني ... هذا ما اكده لي دائماً .

– تسافرين مع مروان الى خارج البلاد . وهذا يحل المشكلة .

– أنت لا تعرف نمرود . لا تقف في وجهه مسافات او حدود .

انه حاضر في كل مكان ، ملمٌّ بكل معرفة ، واقف على كل خبر . ومروان لا يعرف ذلك . ولذا اشعر بلوعة تأنيب الضمير . مروان لا يعرف ان تحرّكه باتجاهي لم يكن خارجاً عن ارادة نمرود .

– تحملينه اكثر مما يستطيع ... تؤلّهينه . وهو رجل ، كسائر الرجال . لكنه سطا عليك باكراً . وكنتِ رهينة منذ الطفولة . فسلبك ارادتك ، وبات صعباً عليك انتزاع نفسك من وجوده .

يا رانية . انك اليوم فتاة ناضجة. استخدمي قوّتك للانفصال عنـــه . والاستقلال . تحرّري لتهون خطواتك التالية .

– وتحرُّري ، ونضجي ، ودراسّي ، هذه المعطيات ما كانت لولاه .. أرجوك ، اتركني وشأني ، اريد ان استريح .

فتحت الباب وخرجت الى الشرفة .

لم أعد أقوى على البقاء في جوّ الغرفة الكثيف . الماضي والحاضر والمستقبل والذكريات والآمال والاحلام ، تحتشد هنا ، تتحاور معي . تدفعني وتشدّني.

وقفت اتأمل منظر الساحل والبحر ، عبر التلال المتماوجة ونضارة البساتين ثم رفعت بصري الى الفضاء ، ورأيت طائراً كبيراً يحلّق منفرداً .

كان الطائر يرفّ ويبتعد ، ورأسه مشدود الى الارض ، يدوّره في كل الجهات ، حتى اذا بدا له خيال يتحرّك ، هبط يتفرّسه بدقة ، قبل ان يعاود التحليق ، والبحث من جديد .

وكان الفضاء فوقه قبّة زرقاء صافية يغلّفها الدفء والسكينة . تساءلت : لو حاول هذا الباشق ان يرتفع ، ويرتفع ، فإلى اين يصل ؟ هل يستطيع ان يرتقي فوق ظهر القبة ؟ يتنزّه على سطح الخيمة الزرقاء ؟ ام أن قدَره يشدّه الى أجواء معيّنة ، ويحدد له طيرانه ؟

مزوّد بالجناحين ، لكن مقدرته على الطيران ليست مطلقة .

مثلي أنت ، ايها الطائر الوحيد . تعال . اقترب لنترافق ، ونسافر معاً ، نتنزّه فوق سطح الخيمة الزرقاء .

لماذا نبقى داخل الحدود المقفلة ؟ حدود الخوف ، والمسؤولية ، والارتهان والماضي ؟ كم جيل سبقك وسبقني ؟ كم مرة ولدنا قبل ان نولد اليوم ؟

ما رأيك في ان نمضي ونكتشف معاً هذه الالغاز ؟

تحملني أيها الباشق العزيز ، ام تقدّر انه سينبت لي جناحان ، مثل روزينا ....

روزينا !....

وانتفضت .

تراه طائرها الأخضر جاء يذكّرني بوجوب العودة ؟

هربت الى الداخل ، ولم أطق البقاء في غرفتي طويلاً . فخرجت ورحت أسير نحو الحقول . ولم اكد ابتعد بضع خطوات حتى كان مروان في اثـــري .

سار بقربي صامتاً ، ورحنا نبتعد بين الكروم ، باتجاه غابة صنوبر ، تكسو تلة مجاورة .

اخترنا جذع صنوبرة ، وجلسنا نتأمل الطبيعة ونصغي الى « زيزان » الصيف . وهبّت النسمات الدافئة تلفحنا . ثم تتغلغل في اعماق الوادي ، قبل ان تعود الينا من جديد محمّلة بنفحات عطرة ، ومغمّسة برطوبة البحر .

قال مـــروان :

ـ جميل صيف الجبل . لو نستطيع ان ننصب خيمة هنا ، ونقيم فيها حتى آخر العمـــر .

وأجبته بهـــدوء :

ـ فكرة خيالية لا بأس بها .

غاظه كلامي ، فرشقني بنظرة تأنيب :

ـ أهذا كل ما عندك من تعليق ؟

ـ وماذا تريدني ان أقول وقد احضرتني الى هنا ، بدون ارادتي .. وها أنت تجلس امامي ، وتفصّل لي المستقبل . هذا كلّه غير مجد ، ولا مقنـــع يا مـــروان .

– وماذا تريد حضرتك ؟... أن اسجد امامك كفرسان القرون الغابرة ، وانحني اقبل الارض بين يديك ، لاقنعك بأني أحبك ، أريدك رفيقة ، صديقة ، شريكة عمر اذا شئت ... او لا أريد منك شيئاً . فقط ان نوقف الزمن ، حيث نحن ، ونبقى هكذا ، يتدفأ واحدنا بوجود الآخر .... يستأنس به ، يغتني بحضوره ؟.

هذا تعبير لا يخجل تواضعك ، كما اظن .. ولا يخدش احساسك المرهف .

– لا تليق بك السخرية يا مروان . هيّن ان نرصف الكلام ، ان نفصّل الزمن على قدّنا ، ان نبني قصوراً في الهواء. ونشيد ممالك الأحلام .كل ذلك ممكن وسهل . ويبقى الواقع ، يشدنا ، يخزنا ، لنستيقظ ونجد أننا على شفير هاوية .

– وأين هي الهاوية يا رانية ؟ ... هل تبصرينها من هنا ؟..تلفّتي حولك ، اولا تشعرين انك حواء هذا الكون ، وأنا آدم ، أول المخلوقات ؟ وأن هذه الجنّات تنتظر ان تطأها اقدامنا وتتنزه فوقها اعيننا ؟..

افتحي عينيك يا رانية ، واكشحي ضباب الوهم .

كان مروان يتكلم ، ونظره عالق في الافق ، ثم التفت اليّ فجأة ، وأطبق بيديه على يدي ، وقد تبدّلت معالم وجهه :

– معك حق يا رانية ... الكلام لا يفتح عواصم ، ولا يشيد عروش القلوب . سوف الجأ الى الصمت ريثما تتّخذين قرارك .

لا أدري لماذا انزلقت في هذه الثرثرة السخيفة .... إن صمتك يتحدّاني ، يخرجني عن طبيعتي ، فأبذل جهداً مضاعفاً لأغوص في اعماق ذاتك ، وأصل الى الينبوع الذي يردف افكارك بمعين السلبية والانعزالية والهرب .

ابنة عشرين عاماً ، وتتصرّفين كامرأة في السبعين .

صمت مروان ، وكأنه سمّع الدرس واستراح . ثم تركني وراح يسير بين الاشجار ويبتعد ، حتى لم اعد اسمع وقع خطاه .

رحت اتسلّى برشق الحصى على جذع صنوبرة ، واصداء صوته تتردد من حولي ، وتوقظ فيّ مشاعر متناقضة . فأنا منساقة برغبتي الى تلبية هذه الدعوة لمرافقته ، ووجودي هنا دليل على ذلك ، غير اني لا أستطيع قطع صلتي بنمرود ، فذلك فوق طاقتي .

وعاد صوت مروان يقنعني :

ـ لن تكوني وحدك ، نجاهد معاً . نترافق ونتعاون .

ـ يا مروان ، انت لا تعرف نمرود . المغامرة مكلفة ، وسوف تنتهي إلى الفشـــل .

ـ عدنا الى التشاؤم .... لماذا لا نجرّب . اعطي نفسك فرصة التجربة ، نبقى هنا ، ونحاول .

وصفّق في صدري جناحا طائر غريب . وشعرت انه ينفصل عني ، يقطع القيد ويطير مردّداً :

ـ نجرّب ، انا سأحاول . وافعلي انت ، ما تشائين .

ـ وتبقى هنـــا ؟

ـ أبقى برفقة مروان . أخرج من حدود قبّتك الزرقاء ... اخرج الى السطح واتنزّه فوقه . اخترق جدار الصمت والسلبيّة والجمود ... أنظري ،

جناحاي قويّان ولي ارادة التحليق الى أقصى حد .

– وأنا ، ما يكون مصيري ؟

– تقيمين هنا ، تراقبين النتيجة .

– فكرة رائعة .... ومروان ؟.. هل يرضى بك ويتخلّى عني ؟

– أحاول ان اقلّدك . أفرش جناحيّ وأرسم فوقهما صورتك . أو نتداخل ، لنصبح واحداً ، وتسلميني زمام القيادة والتصرّف ... لم يسبق لك ان اخترقت حداً أبعد من منزل روزينا ، فلماذا لا تغامرين في سبيل المغـــامرة ؟ ...

– ومن يدفع الثمن ؟

– حساباتك تضايقني . مرة واحدة دعيني أمزق هذا الدفتر ، لأعيش .

* * *

جفّلني رفيف أجنحة بالقرب مني ، وانقطع الحوار الداخلي .

كان الباشق ما يزال يبحث عن صيده . وعاد يحلّق فوق الغابة ، ويتغلغل بين الاشجار . وتساءلت : ما هي العلاقة بين هذا الطائر ، وذاك المصفق في ذاتـــي ؟

ولفتت نظري حركة فوق قمّة التلة المقابلة . كان مروان قد وصل اليها . وراح يحرّك ساعديه ، كما يفعل الطائر وهو يهمّ بالتحليق .

نهضت أنفض عن ثيابي الغبار والرمال الحمراء ، وإبر الصنوبر اليابسة ،

ثم ركضت باتجاه مروان بخفّة ، وكأنما الطائر يحملني فوق جناحيه ، فلم أعد اشعر بثقل الجسد .

وبدأت الأثقال الاخرى تنهار عن كتفيّ ، وتتراكم على جانبيّ الطريق ، وانا احس ان مدّاً سحرياً راح يخترق كياني ، يحملني ، ويرفعني ليوصلني اليه.

* * *

الشمس تودّع التلال ، تاركة فوقها قبلاتها ظلالاً مختلفة الأحجام . ونحن نحثّ الخطى بين الدروب الضيّقة المحصبة ، وقد تشابكت يدانا ، وتمازجت أحاديثنا فلم نعد نحفل بمعنى الكلام .

صار ما يحدث هو المهم .

وكانت الدهشة تستحوذ عليّ ، فأنظر الى ما حولي غير مصدّقة ، وأمضي مندفعة ، بكلّ قوّتي في تيّار الطائر المتحرّك ..... واذا ما تذكرت ، في بعض الطريق ، نزهة ماضية برفقة نمرود ، تدخّل الطائر الحريص ، ورفّ بأحد جناحيه ، ليمسحها من ذاكرتي ، ويدعوني لأتابع المسير .

سأل مروان : نعود الى البيت ، ام نتابع المسير ؟....

ولم أعلم بماذا أجيبه . نظرت اليه ، ولأوّل مرّة ، الى عينيه ، وأبصرت فيهما ما تحلم به كل فتاة .

كانت عيناه أشبه بنافذتين تنفتحان وتتّسعان ثم تزدحمان بشتّى ألوان العاطفة البشرية من إعجاب وحنان وحب واحترام . وهذه الألوان تتداخل ،

وتتمازج ، لتشكّلُ لوحة رائعة . ثم تتحرّك ، وتتحوّل الى بحيرة دافئة ، وأحس أني أستطيع أن أغوص الى أعماقها براحة وطمأنينة .

وسمعت شفتيّ تتمتمان ، وأنا أحاول انتشال نفسي من البحيرة :

كما تشـــاء ....

ـ الأفضل ان نعرّج على العمّة حتى لا نثير قلقها .

ـ أو شكوكهـــا .....

ـ لا داعي لان تشغلي بالك بهذه الافكار ... عمتي ذكية . وتفهم الناس من النظرة الاولى .

ـ كنت أمزح يا مروان ... على كل حال لا تعلّق على كلامي . المهم أني قرّرت البقاء برفقتك ، هذا الاسبوع ، على الأقل .

ـ ليس أنت من يقرر الأمور هنا .

قالها معاتباً ، وهو يطوي ذراعه حول خصري ، ويسير بقربي ، وقد ازدادت خطواته ثباتاً .

° ° °

أطلّت علينا الستّ بشرى من فـــوق الشرفة ، تحمل بين يديها قطعة قماش انهمكت بتطريزها ... ولم تلبث ان طرحتها من يدها ، وخفّت ترحب بنا ، وتعلّق بحماسة على لون الصحّة والعافية البادي فوق وجهينا . وتؤكد لنا انه مناخ الجبل وسحره .

سبقتنا الى الداخل ، تحضر اكواب شراب اعدته بنفسها من ورد الحديقـــة .

سألتني ، محاولة ان تملأ الفراغ بيننا :

ـ أعجبتك طبيعة ضيعتنـــا ؟

ـ انها رائعة يا ستّ بشرى . يكفي أنها محاطة باحراج الصنوبر . لا أدري لماذا أعتبر شجرة الصنوبر أجمل الاشجار على الاطلاق .

وهزّت رأسها مـــرددة :

ـ ربما لأنها تحمل نفسها بشهامة وإباء . يندر ان نبصر صنوبرة تحني رأسها . وانا لا أطيق رؤية الذلّ في الطبيعة والناس .

وتدخّل مروان بلهجة مرحة :

ـ عمّتي شاعرة ، يا رانية . خذي حذرك ، وانتقي كلماتك جيّداً .

وأجبتـــه :

ـ انك لا تمزح . فهذا هو الواقع . ولا أجد ذلك مستغرباً وسط هذا الجو السماوي . جمال الطبيعة ، الى جانب الهدوء والذوق المرهف .

أضفْتُ عبارتي الأخيرة وانا أشير الى القماش المطرّز بين يديها .

وقاطعني مـــروان :

ـ وذوقها الأدبي يتجلّى في مكتبتها ، ومحاولات شعرية ما تزال مخبأة في صندوق مقفـــل .

ولم تعلّق العمة على ذلك . بل أحنت رأسها وكأنها لم تسمع ، أو كأنما تريد أن تنسى تلك الناحية من شخصيتها . فعاد مروان يخزها بلسانه :

ـ سوف أظل ألاحقك وأزعجك حتى تطلعيني على تلك القصائد .

ابتسمت له قائلة :

ـ كانت تلك مزحة يا مروان . لم أكتب الشعر ؛ ولا اعرف كيف يُكتب . كل ما هنالك أن المطالعة تستهويني ؛ ومع الايام، جمعت بعض كتب أعجبتني ، او بالاحرى ، ما تبقّى من تلك الكتب : لأن الاصدقاء اعتادوا السطو على مكتبتي .

ـ ونحن سنتابع الليلة الغزو لكنوزك العتيقة ، اذا سمحتِ يا عمّتي .

وكانت الكلمة الاخيرة قبلة عميقة ، طبعها مروان على خدها مداعباً .

° ° °

شعرتُ بارتياح وانا أتأمل طبيعة مروان المرحة ، تتفتح امامي . وفكرت :

هذه هي الحياة التي حلمت بها . ومروان سوف يظلّ بقربي ، دائماً بقربي . ولن يكون لي وقت لنظم الشعر ، او الاهتمام بالصناديق المعتّقة .

° ° °

فتحت لنا العمة باب المكتبة ودعتنا اليها . ولا أدري لماذا تذكرت روزينا وصندوقها ، واوراقها .

ترى ، أو يكون هناك شبه بين المرأتين ؟

الست بشرى ، وعزلتها وابنها ... هل لها ابن يدرس في الخارج كما ذكرت لي ؟....

وجّهت السؤال الى مروان ، فيما بعد ، حين اختار مقعده بجانبي ، ليشاركني نور المصبـــاح .

التفت اليّ مستفهماً وكأنه لم يدرك ما قلت ، فعدت اسأله :

ـ ابن عمتك . ما اسمه ؟

ـ جميـــل .

ـ وماذا يدرس ؟

ـ الهندسة الالكترونية آخر موضة في هذه الايام .

وصمت مروان . وتناولتُ كتاباً عن أحد الرفوف ، ورحت اتأمّل غلافه القديم ، وأقلّب صفحاته الصفراء ... وكانت اطراف الاوراق مبريّة من كثرة ما تقلبت عليها أيدٍ .

قرأت العنوان في الداخل :

« دون جوان » اللورد بايرون .. من تراه تعلّق به حتى بَراه ؟.

تابعت تقليب الاوراق ثم توقفت عند هذا المقطع :

« بنظـــرات حالمة ، وحنـــان صامت
تمتـــزج العواطـــف ، وتتداخـــل ،

الصديـــق والابن والاخ والحبيب
الافضـــل من كل تعبيـــر
حين يصب القلب في القلـــب

وتحب كثيراً ، وتظل عاجزاً عن تفسير الحب »

شعرت ان هذه الكلمات تتجسّد حقاً في وجودنا ، وبداية تشـــابك العواطف ، وتقارب القلبين .

وفي ذلك الجو العابق برائحة الكتب والسكينة ، ظل طيف اسطورة يحوم فوقي ، ويوقظ في نفسي التساؤلات .

وعدت الى اللورد بايرون ، أغوص بين أمواج قصيدته ، وقد راحت تدفعني ، وتحولني صوب مروان .

وكان هو قد اختار كتاباً ، وغرق في مطالعته ، ثم التفت الي فجأة ، وراح يقرأ بصوت اقرب الى الهمس :

« فاذا ما نثـــر معشوقي على الدنيـــا
شـــذى عطره إبّـــان الربيـــع
فاني افتـــح له قلبي ، مرحبـــا
فطلعتـــه تملأ نفسي بالراحـــة
إن البلبل المولّه يتخلّى عن الشدو ،
وليس كل مستمـــع يفهم ســـري
اما الوردة فهي التي تعلم – بدون شك – سر البلبل

وانـــني مستغرق في عشق الـــوردة
فأنا ، امام وجـــودها ، محوٌ مطلـــق »

ثم طوى الكتاب وهو يردد :

ـ هذا هو منطق الطير .

وسألته ، وانا نصف ذاهلة :

ـ هذا الشعر من تأليفك ؟

وغمرتني ذراعه وهو يردد :

ـ طبعاً لا . ولو كنت شاعراً لعلّمت البلبل كيف يكون الشدو بدون نهـــاية .

ان الكلام الذي سمعتِ ، يا رانية ، ليس سوى رموز مستعارة للتعبير عن بعض حالات العشق ، الصوفي . كانت هذه مقتطفات من ملحمة « منطق الطير » قرأتها لاقول لك إن الكلمة التي تعبّر عن العشق والهيام ، تبقى هي هي ، وقلّما يطرأ عليها اي تغيير ، وحتى لو تبدل معنى الحب ، وغايته .

ـ وتعتقد ان معنى الحب يتبدل ؟

ـ العلاقة تتلون . المسافة بين المرأة والرجل تغيّرت مع تقلب الأزمنة . وهي في عصرنا ، لحسن الحظ ، تختصر وتتقلّص ، والدليل نحن ؛ اننـــا استطعنا ان نكون معاً ، دون قيود مسبقة . والذي يجمعنا ، هو رباط الحب ، والصداقـــة .

– والمسافة بين شخصين ، لا تقاس بالمقاييس الجغرافية يا مروان . قد نكون معاً ، ومع ذلك تفصل بيننا اوقيانوسات . وتحول دون اتصالنا قارات .

– تخلّي عن المبالغة والفذلكة . اني لا ابصر مسافة شعرة تفصل بيننا .

انسي منطق الطير والبشر ، وتعالي نتمشّى في الحديقة .. جو المكتبة لا يؤاتيـــك .

لم يترك لي مروان ، الفرصة لأفكر . جذبني بيدي ، وهبطنا السلم الى الحديقة . ثم رحنا نتجول بين أشجارها لحظات ، قبل ان تقودنا خطانا الى الطريق المهجـــور .

وكان الصمت يجلّل التلال والقرى المجاورة . والقمر يتهادى بشموخ واعتزاز ، يتابع رحلته المعتادة ، يتفقّد رعاياه ، وقد تضاءلت النجوم من حوله ، حياء وخشوعاً .

وتذكّرت عبارة مروان ، ونحن في الغابة . قال لي إننا آدم وحواء ، المخلوقان الجديدان في عالم جديد ، خلق لحسابنا ، لسعادتنا وراحتنا . وارتميت فوق موجة ذلك الشعور المستسلم المريح ، وقد سددت اذني ، كيلا اسمع نباح كلب تردّد صداه في الوادي ، ودقّات ساعة الكنيسة في قرية مجاورة .

وعاد مروان الي . عاد من شروده ليلفت انتباهي الى تلك اللحظات النـــادرة :

– قفي ، يا رانية ، وتأمّلي ، واصغي ، وسجّلي للذكرى .. أيام اللقاء الاول ، يقول الكبار ، هي من أسعد ايام العمر . وهي الكنوز المدخرة لأيام

الصقيع . واني ، مع عدم تقديري وفهمي لما يقولون، لا أستطيع الا ان اعي هذه اللحظات واقدر قيمتها ، وأعيشها بعمق ، واطلب منك ان تشاركيني ذلك ، لتكتمل سعادتنا .

رانية ، تأمّلي الوادي ، والتلال والغابات .... كم مرت بها أجيال ؟ كم من شاب وفتاة وقفا وقفتنا ... كم تتشابه الازمنة !..

أوَلا تشعرين ، اننا نكمل الآن ، دورة بدأها من جاؤوا قبلنا ؟... نلتقط من ايديهم الشعلة ونتابع المسير ؟... الحياة وضعت في راحتينا بذور الحب ، وعلينا ان نرعاها ، ونسهر على نموها ، ونكون مثل الفلاح المخلص المؤمن بعطاء الموسم .

كنتُ اصغي ، ولا اقول شيئاً . وتنبّه مروان الى ذلك، فتمتم معتذراً :

ــ ها اني عدت الى الهذر. لا ادري ما بي اليوم . انك تفتحين لي ابواباً مقفلة . تحلّين عقدة لساني مثلما تحل طلعة الوردة مشكلة البلبل .

وأجابــه القلب قبل ان تنطق الشفتان :

ــ اني سعيدة بذلك يا مروان . مغتبطة بوجودك ، مستندة الى جدار قوتك . وان كنت لا أعبر عن مشاعري فلأن الكلام يعصاني .

أحس أن الكلمات جلود ضيّقة تعجز عن استيعاب المعاني ، والأمنيات والاحلام . لذلك أصمت، لأحيا هذه اللحظات في وجداني .

ــ وايامنا المقبلة معاً ، سوف تكون ساعاتها حيّة فينا ، بوعينا، وتفاهمنا وحبنا العميــق .

حتى الساعة ، كان كلام مروان عن المستقبل يعنيه وحده . اما الآن ، فهو يتغلغل الى صميم ذاتي .

وتذكّرت كلام روزينا عن الفأس والشجرة ، وانتفضتْ في صدري امواج التمرد ، ورف الطائر الداخلي :

ـ أرافقه الى حيث يشاء . الى أقصى أطراف المعمور .

ويا مروان ، كيف تتلاشى الهموم وتتناثر الأثقال ، وانا بقربك .... أي سحر لك ، أيّة سطوة!...

قطع علي تأملاتي تعثّري بحجر في بعض الطريق كدت أسقط ارضاً لو لم تتداركني يد مروان. شدني إلى صدره بقوة وحنان، وشعرت ان دفء شخصيته يتسرب الي ، فيذيب ما بقي من طبقات الجليد حول جدران القلب .

* * *

فتحت عيني ببطء ، ورحت أدب خارج أسوار الحلم .

كان النور ينتشر في ارجاء الغرفة ، حاملاً الي بشائر يوم جديد . وتهادت الى سمعي زقزقة العصافير ، بين أشجار الحديقة . وتذكّرت مكاني ، وتحسّست شعوراً عذباً يسري في أوصالي ، يمد عروقي بالحيويّة والنشاط .

خرجتُ الى الشرفة ، ووقفت أتأمّل ما حولي بعينين ذاهلتين ، وقلب يرتعش بالفرحة .

بدت الارض وكأنها مولودة في تلك اللحظة ، وما يزال الضباب الشفاف يغلفها ، ويرتفع فوقها كالمظلّة الواقية من حرارة الشمس ، وحدة الصرخات .

وانتشرت أشجار الصنوبر ، فوق التلال ، ضاحكة هادئة ونظيفة ، مثل صبايا حسان خارجات من الحمام .

وكان البحر المتثائب عند أقدام الجبال يعكس زرقة الفضاء وجـــلال الهـــدوء .

كل ما في الطبيعة يغري بالخروج .... يدعوني الى القيام بنزهة ... حتى لو كان مروان غافياً ، أسير وحدي .

ارتديت ثيابي بسرعة وخرجت متسلّلة فوق رؤوس اصابعي ، حتى لا

أثير الضجة .... وهف الي عطر القهوة المطيّبة بالهال . وكانت الست بشرى في الحديقة ، تتفقّد غرساتها ، وترويها .

تخلّت عن كل شيء ، وهرعت تطمئن عن الصحة ، وتسأل اذا نمتُ براحة . ثم دعتني لنشرب القهوة على شرفة جانبية بعيدة عن غرفة مروان .

لم تدع فرصة انفرادنا تفوتها ، فراحت تتحدث عن طفولة مروان ، الجانب الذي لم يذكره لي من قبل ، ولم يسلّط عليه بصيص نور .

ولا أدري لماذا حملتني كلماتها الى الماضي ، وذكرياته . الى ساحة القرية ، فأبصرت وجه هاني يتراءى لي عند كل منعطف ، وخلف كل صورة .

تراه الحب ، يقرب الوجوه ، يجمعها ، يجعلها متساوية ، متداخلة ، يستطيع الواحد ان يحل مكان الآخر براحة ودون تعثر ؟...

وهاني أين هو ؟...

كانت العلاقة التي جمعتني به مختلفة . حب طفولي ساذج ، لكن خيوطه ما تزال تلتف حول القلب ، وتتشابك بتيارات العواطف المتصاعدة ، النامية . ويبقى الحنين الى لقياه ، موازياً لحنين يشدني الى ايام الطفولة المنفصلة عن الحاضر ، وعن كياني الحالي .

عادت العمّة من المطبخ ، تحمل صينية عليها ابريق القهوة وثلاثة فناجين ، ثم جلست وهي تردد وكأنها تخاطب نفسها :

ـ أتمنّى لو يلتقي جميل بفتاة مثلك ، رزينة ، متعلمة وابنة بلدنا ..

جُلّ ما اخشاه ان يعود مع زوجة من الخارج . واذا تم له ذلك ، فقد

لا يعود مطلقاً ، وأبقى وحدي .

قلت أطيّب خاطرها :

– او تسافرين للاقامة عنده .

واجابت نافية :

– هذا مستحيل يا ابنتي . انا مجذرة هنا ، ويصعب على الجذور العتيقة ، الانتقال الى تربة جديدة .

– اذن ، أرجو ان يحقق جميل آمالك ، فيعود اليك ، الى وطنه ؛ اننا بأشد الحاجة الى امثاله .

– ونكتفي ، مع الأسف ، بالكلام . لن يتحرك احد ليفعل شيئاً لجميل ، لجيله من العلماء والشباب المثقف .... برغم حاجتنا الى علومهم وخبراتهم .

وصمتت لحظة ، ثم اردفت :

– عفواً يا رانية . اذا استرسلتُ مع افكاري بعصبية ، فهذا كل ما يقلقني ، ويعكّر صفاء ايامي .

كنت ، من قبل ، مشغولة البال على مستقبله ونجاحه ، ومادة اختصاصه . والحمد لله ، انه نجح وتفوق ، وكان ذلك ما ساعده على متابعة تخصصه العالي ، وبدل ان أفرح ، صرت احسب حسابات جديدة ، واحمل هموماً من نوع آخر . والامثلة امامنا ، ملء السمع والبصر . والذين يسافرون ، من شبابنا ، لا يعودون ، واذا عادوا ، وقعوا في خيبة الامل .

لا أقول ذلك ، لأثبط عزيمتك انت ومروان ، انما هو الواقع . وارجو

ان يختار ابن اخي ، عملاً يبقيه داخل حدود بلاده .

طارت عبارتها الأخيرة الى اذن مروان . كان يقف في باب الشرفة ، متدثّراً بعباءة فضفاضة . يتأمل ، ويسمع ، ويبتسم بهدوء .

قالت العمـــة :

ــ كنا نستغيبك ، يا مروان ، هل سمعت كل شيء ؟

وأجابها بلهجة مداعبة :

ــ سمعت ما فيه الكفاية ... واقترب يقبّل وجنتها قبل ان يوجّه سؤاله الي :

ــ هل نمت براحة ؟.... لا ، لا تجيبي ، اقرأ الجواب في عينيك ، وفوق وجنتيـــك .

وتدخّلت العمة :

ــ انه مناخ « كفر الشير » وهواؤها النقي .

وأضفت بـــدوري :

ــ ولطفك وضيافتك ، يا ست بشرى .

قالت ، وهي تسكب القهوة لمروان :

ــ ناديني العمة بشرى ، او باسمي دون القاب ، المجاملات ضد طبعي .

طرحتْ ملاحظتها وانصرفت الى الداخل ، واقترب مروان يتأمّـــل

وجهي ، ويصب في عيني بصمت ، كل ما يختزنه من عطف وحنان ، ثم تناول يدي فطبع عليها قبلة ناعمة ، ومسح الفضاء بنظرة مرحة ، وهو يردد :

– نهار عظيم . الطبيعة أعدت لنا وليمة فاخرة ، فلا يجوز أن نخيبها ... ما قولك بنزهة نتوغل فيها بين الجبال لأعرفك الى كهوف المنطقة وأحراجها ؟

قلت له :

– فكرة رائعة ، شرط ان ترافقنا الست بشرى .

وردت العمة اقتراحي بلطف وهي تتذرع بشتى الأعذار :

– النزهات للشباب ، من أين لي القوة على المشي ... لكني سأبقى بانتظار عودتكما للغداء .

وخالفها مروان الرأي :

– لن نرتبط بأوقات محددة . سوف نعيش اليوم كطيور الغاب ، نأكل ما نصادفه من ثمار وبقول .

– وأزودكما ببعض الشطائر الخفيفة .

تناولنا الفطور بسرعة ، وتجهزنا للمسير ، ثم انطلقنا بين الدروب المتشعبة . وراحت تتكشف لنا ، مع كل خطوة ، لوحات جديدة من جمالات طبيعة الجبل .

كنا نسير بدون كلام ، محمولين فوق متن نشوة روحية ، تغذيها المناظر

الجميلة . وعطر الارض . والنسمات المنعشة . سرنا ، وكأننا ، في تلك الرحلة . قد اخترقنا سقف القبّة الزرقاء ، ونفذنا إلى الخارج . الى حيث يخف الجاذب الأرضي ، ويتلاشى ثقل الكيان الجسدي .

كان مروان يعرف المنطقة جيداً . لقد تربّى هنا ، وقام بمثل هذه الرحلة ، عشرات المرات ، وبات لذلك خير دليل .

عند الظهيرة ، وصلنا الى ينبوع ماء ، تظلّله أشجار الصفصاف والدلب . فاقترح ان نجلس هناك ، نتناول طعامنا ونستريح ، وننعم ببرودة الجو .

ولم نصادف في طريقنا سوى راع ، وقطيع ماعز ، وبعض الطيور والفراشات . وقد تضاعف عدد الطيور حين اقتربنا من النبع . وكانت تتناغى وتتحاور عبر الاشجار ، بحماسة وفرح ، وتمتزج زقزقاتها بخرير رتيب ، يصدر عن الينبوع ، ويتلاشى في الفضاء .

جلست على حافة الصخرة ، بعدما خلعت حذائي ، وتركت قدمي تغوصان في مجرى الساقية . عدت طفلة ، لا تطلب من الوجود ، سوى اللهو والمرح والحـــرية .

وانحنى مروان ، يغرف من رأس النبع ، حفنات ماء يغسل بها وجهه ، قبل ان يتمد د على ضفة الساقية ، فوق بساط من الحشائش الرطبة .

قال ونظره يلاحق حركة الأغصان :

ــ لم اكن اعلم انك قوية الى هذا الحد . في بعض الطريق ، كدت لا أجـــاريك .

اجبته باعتـــداد :

– لا تنسَ أني بنت الضيعة ، وساقاي معتادتان على تسلّق الجبال .

– وقلبك هائم بحب الطبيعـــة ....

– الى درجة الســـكر ..

– انتبهي ... بدأت الغيرة تتململ في صدري ، لا تجعليني في موقف منافسة مع الطبيعـــة .

– هذا أفضل من منافسة انسان ....

وقفز مروان ، من مكانه ثم انتصب أمامي وهو يردد بلهجة يغلب عليها الجـــد :

– أقتله ، أتسمعين ؟... ذلك الإنسان لن يوجد . وانا واثق بأن الغلبة في حلبة الصراع ستكون الى جانبي . الى جانب حبّك .. هل تفهمين ؟...

ولم أعد اســـمع .

غامت الدنيا في عيني ، وهو يطبق علي ذراعيه ، ويطبع على فمي ، قبلته الاولى .

اختلج قلبي ، وانتفضت لأحرر نفسي ، وتراجع مروان ، ذاهلاً ، وكأن ما حدث كان خارج نطاق ارادته ... وكأن اللحظة بيننا ، افلتت من حساب الزمن . وراحت تحلّق وحدها ، كفراشة هائمة .

وسمعته يتمتـــم :

– عفواً يا رانية ، لم أقصد ان أضعف الى هذا الحد ... وكنت طوال

الوقت ، أسعى لأبقى في نظرك ، أرفع من المألوف ، في المسلك ، والكلام . لكن القوة خانتني ، والارادة خذلتني .. وقد يكون الحق على هذا الجـــو الرائع ... على كل حال ، اعدك ، بألا يتكرر ذلك ، دون ارادتك .

بقيت صامتـــة .

لم يكن هناك أي خطأ في تصرف مروان . كان مسلكه طبيعياً . بل ان هذا الاتصال العفوي هدم آخر ما بقي بيننا من فواصل . ومع ذلك ، راح الضمير يقرع ابواب الوعي ، ويحاسب .

اغمضت عيني ، علّني استرجع بعض الهدوء . وسمعت خطوات مروان تبتعد ، ثم تتلاشى . وحين عاد ، بعد دقائق ، كان يحمل في يده ضمة من أزهار الياسمين البري ، قدمها الي ، وهو ينحني بحركة تمثيلية طريفة :

ـ أتحب ، سيدتي ، زهور البراري ؟

خطفت الأزهار من يده ، غير مصدقة :

ـ أين وجدت هذه الزهرة يا مروان ؟ بحثت عنها طوال الطريق ، دون جـــدوى !

أشار بيده الى « غيضة » في الجوار :

ـ هناك ، وظّفت بستانياً ليغرس زهرتك المفضلة ، حتى استطعت ان اقدمها اليك في هذه المناسبة السارة .

ضحكنا بمرح ... وزال من جونا الارتباك .. ثم وضعت ضمّة الياسمين في حوض ماء ، لتشرب منه ما يكفيها لتقاوم حرارة الطريق .

* * *

أيها الســـاحر .

تقف كالمارد فوق رأسي . لهاثك ينشر فوق جسدي النار . عيناك تقدحان شرراً ، منهما تخرج ألسنة لهيب حمراء ، زرقاء ، صفراء .

وأتحسّس آثار الحريق في دمي ، في عيني وفوق شفتي .... في كل مغرز إبرة من كيـــاني .

أتوكّأ عليك ، وأحس اني استند الى جبل .

أهرب الى حضنك ، وتتلاشى همومي كلها .

أرتمي بين يديك ، فيلفّني الدفء والحنان .

أسير معك ، ذراعي مشبوكة بذراعك ، ودقّات قلبي تردد اسمك .

ايها الحـــب ؟

هكذا يدعـــونك .

وتنهمر كدموع الغمـــام .

تنقض على الوجود ، كجيش الغزاة ولا يبقى مكان فارغ ، خارج حدود اسمك .

يسمّونك الحب ، وانا سمعتُ بك ، حلمتُ بك ، عشتّ

في عروقي ، وهربتُ منك سنوات . هربتُ وكنت اشتاقك ، أتمنّاك ، أصلي من اجل حضورك .

وجئـــتَ .

ها أنا واقفة في حضرتك ، تجلببني عباءتك الشفافة ، يدثّرني رداؤك السحري ، تلفّني الخيوط المتشابكة ، والشعاعات المتدفّقة من ينبوعك السرمدي.

مرحبـــاً بك .

أخرجُ الى استقبالك من سبات أجيال . من صمت آلاف السنين .

من خدر قـــرون .

أخرج من جلدي المتحجّر ، لتطوقني ذراعاك ، وترف علي ظلال عينيك ايها الغريب الذي انتظرت !

أنت الآن بقـــربي .

مرني فأطعك . وأبقى رهن إشارة من اشاراتك . خادمة في معبدك . أقرب اليك من ذاتك .

وأنا لو علمتَ ، كنت قبلك مشنوقة فوق حبل الانتظار الطويل . وامتدت يدك تفك الحبل المطوق عنقي .

كنت أرسف في القيود والسلاسل فحررتني .

كنتُ رهينة أجيال من العبودية ، فأطلقتني .

وماذا عندي لاعطيك ؟

ماذا تعطي الساقية للنهر الهدار ؟... لا أملك سوى ذاتي . وحتى هذه ، لا املك حق التصرف بها . أحرضك على اختلاسها .

أخطفها وطِرْ بها ، وتجاوز حدوه القبّة الزرقاء ....

* * *

كنا في طريق العودة ، وقد خلع الغروب على الطبيعة مزاجاً شعرياً يغري بالتأمّل والصمت .

وخرجت من هذا الحوار اللاواعي مع سلطان الحب ، لاسمع صوت مـــروان يهتف بي :

ــ سنعرج بطريقنا على غابة الصخور ... هل سمعت بها من قبل ؟... ليست بعيدة من هنا .

أجبته ، وكأنّي اتحدث من داخل أسوار الحلم :

ــ كما تريد يا مروان . انك تعرف الطريق اكثر مني ، لذلك اخترت ان اتبعك ، كيفما اتجهت .

أدرك التَوْرِية في كلامي فرد فوراً :

ــ وان فعلتِ ، فلن تندمي ، وطريقي سهل ، يقودك الى ينبوع السعادة .

ــ لا شك في ذلك ، يا مروان .

أجبته ، وانا اتساءل :

ــ من أين ولدتْ هذه الجـــرأة ؟ أين توارت القيـــود ، وآثار الكبت الطويل ؟.... كيف انهارت جدران التحفّظ والخوف ؟.

وكنت اشعر بتحولات غريبة تحدث في الداخل ، وتيّارات تتحرك وتدفعني في اتجاه واحد . وتتكاثف ، لتصبح قوة جارفة لا قدرة لي على مقاومتهـــا .

ولم تكن لي ارادة معاكستها ، فتركتها تحملني ، وارتميت فوقها ، مثل ورقة تسقط من شجرة متّكئة على كتف النهر العجّاج ، وتطفو على السطح ، سعيدة ، فرحة ، ومسلوبة الإرادة .

وفي تلك اللحظات ، شعرت انه لم تعد لي حاجة للإرادة ، فأمسكتها وقذفتها بكل قوتي ، وأبصرتها تتدحرج فوق ذرى الصخور .

* * *

– هذه هي غابتك العظيمة ..... قلت هذا ، وانا أفلت يد مروان وأركض بين الصخور ، وقد سيطرت علي الدهشة ، وتملكني الاعجاب .

سبق لي ان زرت الغابـــات ، في شتّى اوقات الليل والنهار ، في كل الفصول . عشت فيها ساعات الصمت والغروب ، وانبلاج الفجر ، وبهجة الشـــروق ....

تَحَوَّلْتُ مع ألوانها في الخريف ، وشققتُ صفحة التربة في الربيع ، وخرجتُ منها شجراً وحشائش وزهوراً .

كنتُ الغابَ ، بكلّ أشجاره وطيوره ، وألوانه ، وأصدائه ، لكني لم أبصر قبل تلك الساعة ، غابة من صخور ...

عدت أنادي مروان من البعيد :

– ما أحلى أن يقيم الانسان مسكنه هنا .

وكنت افكر بصمت: كيف لم يكتشف الناس هذا الكنز الطبيعي ؟ يخيّل الي انها مدينة من حضارة قديمة ، شادتها ، وسكنتها مخلوقات غريبة ... لا يعقل ان يكون هذا التنسيق كله من أعمال الطبيعة .... ما أروع الطبيعة !....

أعادني الى اليقظة ، صوت مروان بقربي ، ويده فوق كتفي :

– تحبّين السكنى هنا ؟... سوف نشتري قطعة ارض صغيرة ، ونبني فوقها بيتنا العتيد ... ويكون أساسه فوق الصخر ...

وتابعت كلامه عنه :

– ولا تعود زلازل الارض تقوى على هز أسسه ، أو خلخلة جدرانه . وتقف من حولنا هذه التماثيل تحدثنا عن الماضي . وتذكّرنا بأنها رمـــوز الديمومة ، وجبروت الطبيعة .

واستطرد مـــروان :

– وتصبح في المستقبل ملعباً لأولادنا يبنون تحت ظلالها بيوتهم الصغيرة . يلعبون حولها ، ويمرحون في هذا الجو النقي .

وصمتْنا .... وظلّت أعيننا تتنزه فوق ذرى الصخور ، وتتزحلق بين أشكالها المنوعة . وتقدّر بكثير من الاعجاب والخشوع ، عمل ذلك الفنان المجهول .... الواقف خلف حدود الطبيعة .

انعكست الشعاعات الاخيرة قبل الغروب ، فحولت رتابة الالوان الى جزر نور وبنفسج . وكنت أستند الى ساعد مروان ، حالمة ، سعيدة ، أعب

الجمال من حولي بكثير من الوعي ، وأتساءل :

– هل يعقل ان يدوم هذا لنا ؟ أولن يغرقني هذا البحر الغامر ؟.

قال مروان ، وكأنه يقرأ افكاري :

– يا رانية ، لن يكون هناك أي تراجع . وصلنا وكفى . لن تستطيع قوة ان تَحُول بيننا . واني اقرأ في عينيك ما كنت احلم به منذ لقيتك اول مرة .... هل تذكرين لقاءنا الاول ؟.

وأجبتـــه :

– لا أحب العودة الى الذكريات . اني الآن بقربك . معك . أمشي في طريقك ، وسوف أتبعك وانسى الماضي ، وهل هذا يرضيك ؟ هيا بنـــا لنرجع ، قبل ان يهجم الليل ، وتطلع الأشبـــاح من بين هذه الصخور ، فتعكّر علينا خلوتنا ، أو تهاجمنا الذئاب وبنات آوى .

سأل مروان مبتسماً :

– وانت تخافينهـــا ؟

– بقربك ، لا أخاف شيئاً .... يا مروان .

* * *

ومع ذلك ، بدأ ذلك الخوف الغريب ينمو في زاوية عميقة من ذاتي . كانت الساعات التالية هانئة ، سعيدة ، آتية الي من خارج الواقع والوجود ، وصرتُ أخاف ان افقدها . كنت أشبه بطفلة محرومة ، حلمت كل الليل بدمية جميلة ، ثم جاء من وضعها بين يديها ، وصارت تخشى ان هي استيقظت ، ان تفقد دميتها .

– لكنكِ لست في حلم . انت في ذروة اليقظة ، في ارفع حالات الوعي .

عاد الطائر يرف بين أضلعي ، يحاورني .

قلتُ لـــه :

– وأخشى إن هبطت من هذا المرتفع ، ان أفقد هذه النعمة ، كلها .

– أنتِ سيّدة الوهم . تكون الحقيقة بين يديك ، وتسافرين الى مطارح بعيدة لتبحثي عن الأوهام ، متى تعقلين ؟....

– لا تلمني . لا تلم المعدم ان قام يرقص ، منتشياً بسعادة الغنى .

– صدقتِ ... انه يرقص ، ولا يخاف . طلّقي الحذر ، واعتقي نفسك من هذا القيد الاخير ! ...

– ساعدني لأحقّق ذلك .

– سلطانك الجديد يساعدك ... هل نسيت انك تملكين الحب ؟.

– وهو سيّد أمـــري .

– هذا كـــلام موزون !....

اختفى طـــائري .

وأطلّت الست بشرى من بوابة الحديقة ، ترحّب بنا بحرارة ، ثم اقتربت تغمرني وهي تـــردد :

– غريب ، كم افتقدتك اليوم ... صرتِ أقرب الي من مروان .

* * *

العَوْدة

ارتميت فوق السرير ، جسداً مرهقاً ، وغفوت منتشية بذكريات النزهة . ولا أذكر في أي ساعة من ساعات الليل ، سمعت ذلك الطرْقَ الغريب على باب غـــرفتي .

فتحت عيني وأصغيت : كان الصمت يغلّف الاجواء، والظلمة تنتشر حولي ، كثيفة ، دامسة . وعادت الطرقات تتكرر على الباب .

أشعلتُ المصباح ونهضتُ اسأل من يكون الطارق ، فلم أحظَ بجواب . فتحتُ الباب ، وأنا اتمتم بصوت خافت :

ـ ست بشرى ؟ .... مـــروان ؟....

كان الممشى خالياً من كل همس .

وفكرت : إنها بقايا حلم .

وأوَيْت الى السرير . وحين أطفأت المصباح ، عادت الطرقات تتكرر ، ثم سمعت همساً يخض سكينة الليل . كان آتياً من البعيد، وكأنّه من اعماق بئـــر :

ـ رانيـــة ..... افتحـــي .

طرحت سؤالي في الهواء :

– من أنـــت ؟.....

ورد الصوت . وكأنه فحيح افعى :

– أونسيت صوتي ، يا رانية ؟ وبهذه السرعة ؟ افتحي الباب .

قفزت الى المصباح . وأنرته . ثم جلست على حافة السرير ، وقد فارقني النعاس ، وحل في عيني الرعب والقلق .

تناولتُ كتاباً عن الطاولة ، ورحت أقلّب صفحاته ، ثم طرحته جانباً بعدما عجزت عن التركيز والمطالعة.

انتقلت الطرقات من الباب ، لترتعش بين اضلعي ، وفكرتُ ان الجأ الى مروان . أهرب اليه ، أوقظه ، واخبره بما جرى لي . ثم عدلت عن الفكرة حين تذكرت اني لا املك الشاهد الحسّي . واعرف ماذا سيقول مروان ... وهو يجهل كل شيء عن نمرود، وعلاقتي به ، وقد يتهمني بالجنون ، ومعايشة الهواجس والأوهام . لا ... لن أجر مروان الى عالمي القاتم . وعلمت ان صراعي في سبيل الخلاص ، والخروج النهائي من دوامة العذاب ، كان عبثـــاً .

وسمعت رفيفَ جناحين قرب اذني ، ثم همس طائري اليقظ :

– بلى ... اذهبي الى مروان . اخترقي عالمه . انه خلاص جسدك وقلبك وروحك . وانت تحبينـــه .

– وتعتقد ان غرفة مروان بعيدة على نمرود ؟ ولا يستطيع ولوجها ؟ قد يعمد الى إيذائه، ولن أحتمل ذلك ، لا أستطيع .

– نمرود بعيد ، وانت تضخمين أوهامك . فراغ الوحدة يجسّم الاصداء، ويحول همس الضمير الى قرع طبول .

– لكني سمعته أكثر من مرة. أعاد القرع على الباب، سمعته وأنا مفتّحة العينين .

– وحين أشعلتِ المصباح ، اختفى . أوَ تظنّين نمرود يخاف النور ؟....

– لكنه يغار ، ويحرص على الاحتفاظ بي ، ولن يصبر علي طويلاً .. لن يطيل الفرصة . اعلم انه سيهجم في أيّة لحظة من لحظات الليل او النهار ، ويخطفني .... يستعيد حقه . وقد يؤذي مروان ... ومروان بريء مثل هاني .. لا ، أتركني . لن أصغي اليك .

– لقد خطوتِ الخطوة الاولى وهي الأصعب . ولم يعد امامكِ سوى مسافة قصيرة جداً .... لا تتراجعي .

– كنتُ أمس ، خارج حدود الوعي . سحرُ مروان سطا علي ، وأخرجني من ذاتي .... وتلك الدقّات الغامضة على باب غرفتي ، على جدران قلبي ، أعادتني الى الواقع .

* * *

نهضتُ الى الحقيبة ، ورحت أحشو فيها ثيابي ، ثم جلست اكتب كلمة الى مروان ، بانتظار طلوع الفجر :

« يا أعز مخلوق :

شكراً .

لكل الاوقات السعيدة ، للحريّة ، للانتعاش .

حين امتدت يدك الى باب القفص ، وحطمته ، وقطعت خيط العبودية الذي كبّل العصفور ، لتطلق سراحه .... عند ذاك لم تفكر يا مروان، بأن هذا العصفور التاعس ، نسي ، لطول ما عاش في القفص ، نسي كيف يستخدم حريته ، ويطيـــر .

واكتشف ان رغبة التحليق فارقته من زمان ، وان الخيط الذي شده الى قضبان القفص ، صار جزءاً من كيانه .

وبرغم ذلك ، كانت النزهة التي أسعدتني بها ، أبعد مما يطاله الحلم .

معك ، استطعت ان أخترق حدود القُبّة الزرقاء ، وأتنزه فوق سطحها. وأبصر من الأعالي كم كانت مجدبة ، ورتيبة ، وقاحلة ، حياتي .

لكن الفسحة تظل فسحة . والحلم ينتهي بحلول اليقظة . والذي يرتمي فوق سطح الموجة ، وإن تأرجح الى حين ، تعود فتلفظه فوق الرمال .

نعم قبلتُك ، أحببتُك ، تركتُ نفسي تطفو فوق سطح أمواجك ، وسعدتُ بذلك كله، وكنتُ أتمنى لو يدوم هذ الحلم ، حتى آخر العمر .

ثم جاءت اليقظـــة .

يا مـــروان .

ماذا تعـــرف عني ؟

حجرُ النار البارد ، هل يحمل معه قصّة البركان الثائر ؟... وحين تلفظه الأعماق ، ويطفو فوق التراب ، وتلتقطه يدك ، لا يخطر ببالك ان النيران

لا تزال تتأجج في داخله ، وان ألسنتها في كل ذرة من تكوينه .

وكنت أنا ذلك الحجر . وجذبك سحر بريقه الخارجي . كما أن الحجر ذاته ، شاء أن يخرج من جلده ، ليدخل في كيانك، ويلتحم بك .

لكن نداء الاعماق كان أقوى منه ، وجاذب الارض ، غلب جاذب الفضاء ..... »

أعدت قراءة الرسالة ثلاث مرات ، ثم قررت أن أمزقها . واستعضت عنها بعبارة مختصرة : « لأني أحبّك، رحلت . شكري واعتذاري للست بشرى » .

غرزتُ الورقة بين زهرات الياسمين فوق الطاولة . وحملت حقيبتي ثم خرجت ، فوق رؤوس أصابعي .

وكان الفجر يتسلّل الى الحقول والبساتين . حاملاً برودة الليل . وأحلام الأجواء العليـــا .

وبدأت تتسرب معه زقزقات خجولة ... وتسابيح عذبة . اختلطت بهدير السيارات المبكرة على طرقات الجبل . تذكرت « قادومية » أرشدني اليها مروان النهار البارح ، انحدرت فوق درجها، فاذا بي ، خلال لحظات . أتسلم الطـــريق العام .

لم يطل وقوفي اكثر من دقائق ، قبل ان تطل « بوسطة » . قاصـــدة بيروت ... اخترت مقعداً قرب إحدى النوافذ، وارتميت فوقه وجعلت الحقيبة امـــامي .

حوّمتْ حولي أنظار الركّاب لحظات قصيرة ، قبل أن يعود اصحابها الى استئناف احاديثهم ... وظل السائق يتسلّى بتحريك مفتاح الراديو ، والتنقل معه ، بين شتّى المحطات ، الى ان استقر رأيه عند نشرة اخبار تبثها اذاعة العاصمة ، فصمت الجميع . وتهادى الينا صوت المذيع يقرأ بكثير من الحماسة والفخـــر :

« وهكذا حقّق الانسان الحلم المستحيل ، ووطأت اول قدم بشرية وجه القمـــر .

ان العالم يعيش أغرب تجربة منذ فجر التاريخ ، وسكان الكرة الارضية يتابعون الرحلة بشوق ، وقد بدأ الرواد الثلاثة يستعدون للرجوع الى الارض .. الى أرضنا الحبيبة ، التي بدت لهم من ذلك البعد ، متألّقة ، كجوهرة نادرة . »

هـذا الكتـابُ

أين تبدأ عـلاقـة الإنسان بمحيطـه وأين تـنتهي ؟ بل أين تبـدأ عـلاقـة الإنسان بقـدره والى أي بُعدٍ تصل؟ هـذا بعضٌ من أسئلة تطرحها "الرهينة" رواية أملي نصرالله، محاولـةً عبر الشخصيات ، والأحداث ، والأسلوب البليغ ، أن تسلّط أضواء جديدة على وضع المرأة ، في مجتمع لايزال يعتبرها مخلوقاً قاصراً يستدعي الوصاية .

كما تمضي الكاتبة أبعد من الواقع الاجتماعي الملموس ، فتشبك عملها الروائي هذا ، بالوجود الإنساني ، أسراره ، وغايته ، وذلك ببساطة وشفافية وشاعرية تضع عملها هذا بين روائع الأعمال الروائية في العصر الحديث .

"الرهينة" علامة بارزة في مسيرة القصة العربية حاولت أملي نصرالله
أن تُكسب الرواية العربية لوناً خاصاً من البعد النفسي والمنحى الفكري .
من الأدب أن يستشرف آفاقاً بين الواقع وسوابقه ولواحقه ليفهم الإنـ
وجوده لا وجوده فحسب، رواية تختصر عصراً ، وترسم واقعاً تاريخياً وانسا